موقع فلسطين
www.falasteen.com

نشرنا لكتاب السيد شاحاك لا يعنى أننا نؤيد ما يطرحه فى كتابه

اسم الكتاب:
الديانة اليهودية وتاريخ اليهود
وطأة 3000 عام
تأليف

إسرائيل شاحاك
قدم له: إدوارد سعيد

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مقدمة الطبعة العربية

البروفسور اسرائيل شاحاك، استاذ مادة الكيمياء العضوية، (المتقاعد)، فـي الجامعة العبرية بالقدس، مـن خيرة المرموقين فـي الشـرق الأوسـط المعاصر. التقيته للمرة الأولى، وشرعت في مراسلة منتظمة معه، منذ نحو 25 سنة، في أعقاب حرب 1967، ثم في أعقاب حرب 1973. ولُد في بولندا، وكان أحد الناجين الذين استطاعوا الهرب من معسكرات الاعتقال النازية. جاء الى فلسطين فور انتهاء الحرب العالمية الثانية، وخدم في الجيش، مثله مثل جميع الشباب الإسرائيليين آنذاك؛ ثم خدم في الاحتياط العكسري لفترات قصيرة فى فصول الصيف، ولعدة سنوات، كما يقتضى القانون الإسرائيلي.

وشاحاك، الذي يمتلك ذهناً بحّاثاً وفاحصاً شرساً لا يلين، تابع سيرته كمحاضر جامعي وباحث بارز فى الكيمياء العضوية، وغالباً ما نوّه به طلابه كأفضل الأساتذة، ومُنح الجوائز على أدائه الأكاديمي، من آلام وحرمان ليس فقط لفلسطينيي الضفة الغربية وغزة، بل العدو الكبير من غير اليهود أيضاً (أي الأقلية الفلسطينية) الذين لم يرحلوا أثناء عمليات الطرد في العام 1948، وبقوا حيث هم، ليصبحوا من ثم، مواطنين إسرائيليين. وقد قاده ذلك الى البحث والاستقصاء فى طبيعة الدولة الإسرائيلية، وفي تاريخها والمقولات السياسية والأيديولوجية، التي سرعان ما اكتشف بأنها مجهولة من معظم اليهود غير الإسرائيليين، وخصوصاً يهود الشتات الذين كانت إسرائيل بنظرهم دولة رائعة وديمقراطية ومعجزة، تستحق الدعم والحماية غير المشروطة.

ولقد أنشأ شاحاك رابطة حقوق الإنسان الإسرائيلية، التي أمضى عدة سنوات في رئاستها. وهذه الرابطة هي عبارة عن مجموعة صغيرة نسبياً من الأشخاص الذين يتشاطرون الرأي، والذين يؤمنون بوجوب أن تكون حقوق الإنسان متساوية للجميع وليس لليهود فقط وفي هذا السياق تحديداً، اطلعت على عمله للمرة الأولى.

والشيء الوحيد الذي يميّز على الفور، مواقف شاحاك السياسية عن مواقف معظم الإسرائيليين الآخرين والحمائم اليهود من غير الإسرائيليين، كان أنه وحده عبّر عن صراحة، امراً "حسناً" لإسرائيل أو اليهود. ولقد كان في كتاباته وأقواله العلنية، معادياً عداء عميقاً للعنصرية، وبودي أن أقول، بأنه كان معادياً عداء تهجمياً ولذلك لم يكن مهماً إذا كان اليهود الإسرائيليون يعتدون، في معظم الأوقات، على الفلسطينيين كونه كمفكر عليه أن يشهد ضد هذه الاعتداءات. وليست مبالغة أن نقول بأنه يلتزم بموقفه التزاماً دقيقاً الى حد أنه سرعان ما أصبح رجلاً مكروهاً جداً في إسرائيل. واذكر بأن وفاته أعلنت قبل نحو 15 عاماً، على الرغم من أنه كان حياً يُرزق. فقد ذُكر نبأ موته في تقرير نشرته صحيفة "واشنطن بوست". وعلى الرغم من أنه قام بزيارة الصحيفة ليثبت بأنه ليس ميتاً، فإن زيارته، كما أخبر أصدقاءه بجذل، لم تؤثر على هذه الصحيفة التي امتنعت عن نشر تصحيح للنبأ. ولذلك فإنه ما زال "ميتاً" بالنسبة الى بعض الناس، وهذه رغبة من بنات الخيال، تكشف الى أي حد يستطيع شاحاك أن يجعل "أصدقاء إسرائيل" يشعرون بالضيق.

وينبغي أن يُقال أيضاً، بأن طريقة شاحاك في قول الحقيقة كانت دائماً بالغة في دقتها ولا هوادة فيها. فليس في هذه الحقيقة ما يغوي، وهو لا يبذل أي محاولة لقولها بطريقة "لطيفة"، كما لا يبذل أي جهد لتكون هذه الحقيقة مستساغة أو قابلة للتفسير بطريقة ما. فالقتل بالنسبة الى شاحاك، هو القتل العمد، هو القتل. وطريقته هي التكرار والصدم وتحريك الكسالى أو غير المبالين، لاستنهاضهم الى وعي للألم الإنساني، مشبوب بالهمّة، بحيث يكونون مسؤولين عن هذا الألم. ولقد ازعج شاحاك الناس في بعض الأحيان، وأثار غضبهم، ولكن هذا جزء من شخصيته، وينبغي أن نقول بأنه جزء من إدراكه للرسالة التي يبشر بها. ولقد أيّد شاحاك، هو والبروفسور الراحل يهوشواع ليبوفيتس، الذي كان شاحاك يكنّ له اعجاباً شديداً، وغالباً ما عمل معه، أيّد مصطلح "اليهودية – النازية"، لوصف طبيعة الطرق التى يستخدمها الإسرائيليون من أجل إخضاع الفلسطينيين وقمعهم. ومع ذلك، فإنه لم يقل أو يكتب في يوم من الأيام، شيئاً لم يكتشفه بنفسه، أو لم يره بأم عينيه، أو لم يختبره مباشرة. والفارق بينه وبين معظم الإسرائيليين الآخرين أنه ربط بين الصهيونية واليهودية والممارسات القمعية ضد غير اليهود، واستخلص الاستنتاجات بالطبع.

وكان للكثير مما كتبه شاحاك دور في كشف الدعاية والأكاذيب على حقيقتها. فإسرائيل دولة فريدة من نوعها في هذا العالم، من حيث الأعذار التي تُساق لصالحها: فالصحافيون إما لا يرون، أو لا يكتبون، ما يعرفون بأنه الحقيقة، خوفاً من إدراج أسمائهم في القائمة السوداء، أو خوفاً من الانتقام، والشخصيات السياسية والثقافية والفكرية، خصوصاً في أوروبا والولايات المتحدة، تتقصّد امتداح إسرائيل، وتغدق عليها قدراً من الأنعام لا يحظى بمثله أي بلد آخر في هذا العالم، مع أن العديدين منهم يعون جور هذا البلد، ولا يقولون عنه شيئاً. والنتيجة هي ستار من الدخان الأيديولوجي الذي بذل شاحاك وحده، وأكثر من أي شخص آخر، جهداً لتبديده. وشاحاك الذي كان بنفسه، ضحية من ضحايا المحرقة النازية، وأحد الناجين منها، يعرف معنى معاداة السامية. ولكنه مع ذلك، وعلى عكس معظم الآخرين، لا يسمح لفظائع المحرقة النازية بالعمل على تحوير حقيقة ما فعلته إسرائيل للفلسطينيين باسم الشعب اليهودي. فالمعاناة بالنسبة اليه، ليست ملكاً حصرياً لمجموعة واحدة من الضحايا، بل ينبغي أن تكون عوضاً عن ذلك، وإن كانت نادراً ما تكون، الأساس لأنسنة الضحايا، يجعلهم يعون واجب الامتناع عن التسبب بمعاناة من النوع الذي اختبروه. ولقد حذر شاحاك مواطنيه من مغبة النسيان بأن التاريخ المروّع لمعاداة السامية الذي عانوا منه، لا يخولهم الحق في أن يفعلوا ما يرغبون بفعله لمجرد أنهم ذاقوا المعاناة. ولا غرابة إذن، بأنه بات مكروهاً لأنه بقوله مثل هذه الأمور، قد قوّض الأساس الأخلاقي لقوانين إسرائيل وممارساتها السياسية تجاه الفلسطينيين.

ويذهب شاحاك حتى أبعد من ذلك. فهو علماني مُطلق، لا يتذبذب، عندما يتعلق الأمر بتاريخ الإنسانية. ولا أقصد بذلك أن أقول بأنه ضد الدين، بل إنه بالأحرى ضد الدين كطريقة لتفسير الأحداث وتبرير المواقف الوحشية المنافية للعقل السليم، وتعظيم شأن جماعة من "المؤمنين" على حساب الآخرين. ومما يدعو الى الدهشة أيضاً، أن شاحاك ليس من رجال اليسار بالمعنى الصحيح للكلمة. فهو في نواح مختلفة، نقّاد شديد للماركسية، تتبع مبادؤه أثر المفكرين الأحرار والليبراليين والعقلانيين العامين الشجعان، من الأوروبيين، من أمثال فولتير وأورويل. وما يجعل شاحاك حتى أكثر مهابة كمؤيد لحقوق الفلسطينيين، هو أنه لا يستسلم للفكرة التي تغلب عليها الاعتبارات العاطفية، والقاضية بعذر الفلسطينيين على حماقاتهم لأنهم عانوا في ظل سيطرة إسرائيل. فهو بعيد عن هذا الموقف، وكان دائماً نقاداً شديداً لمنظمة التحرير الفلسطينية، لإهمالها، ولجهلها لإسرائيل، وعدم قدرتها على معارضتها معارضة تتّسم بالعزم، ولمهاوداتها الدنيئة وإفراطها في إجلال الفرد لشخصه وليس لما يمثله، ولانعدام جديتها عموماً. ولقد رفع صوته بقوة أيضاً، ضد الانتقام أو جرائم "الشرف" ضد النساء الفلسطينيات، وكان دائماً من مؤيدي حركة تحرر المرأة.

وخلال الثمانينات عندما أصبح شائعاً سعي المفكرين الفلسطينيين وبعض مسؤولي منظمة التحرير الفلسطينية، من أجل "الحوار" مع الحمائم الإسرائيليين من حركة "السلام الآن" وحزب العمل وجبهة ميرتز، ثابر هؤلاء على استثناء شاحاك. وكان أحد أسباب هذا الاستثناء أن شاحاك كان يقف موقفاً نقاداً للغاية، من معسكر السلام الإسرائيلي بسبب مهاوداته وممارسته الضغط المخزي على الفلسطينيين ليغييروا سياستهم، وليس على الحكومة الإسرائيلية، وبسبب تمنّعه عن تحرير نفسه من قيود "حماية" إسرائيل بالامتناع عن التفوّه بأي انتقاد لها أمام "غير اليهود". أما السبب الآخر فكان أن شاحاك لم يكن يوماً من رجال السياسة، فهو، بكل بساطة، لم يكن يؤمن بمسلك تصنّع المواقف والمداورات في الكلام، الذي ينغمس فيه طوعاً، ذوو الطموحات السياسية. فقد ناضل من أجل المساواة والحقيقة والسلام الحقيقي والحوار مع الفلسطينيين، بينما ناضل الحمائم الإسرائيليون الرسميون من أجل ترتيبات تجعل من سلام أوسلو نوع السلام الممكن الذي كان شاحاك من الأوائل الذين نددوا به. وأنني أقول كفلسطيني، بأنني كنت دائماً أشعر بالخجل لأن النشيطين الفلسطينيين الذين كانوا مهتمين بالحوار، في السر أو في العلن، مع حزب العمل أو ميرتز، رفضوا أن تكون لهم صلة بشاحاك. فهو بالنسبة اليهم، راديكالي أكثر من اللزوم، وصريح أكثر من اللزوم، وهامشي جداً فيما يتعلق بالسلطة الرسمية. وأعتقد بأنهم كانوا في سرّهم، يخافون أيضاً، من أن يكون شاحاك نقاداً للسياسات الفلسطينية. ولا شك بأنه كان سيفعل.

بالإضافة الى كونه قدوة تُحتذى، فإن شاحاك كمفكر لم يقدم، في أي وقت من الأوقات، على خيانة رسالته أو المهاودة بالحقيقة كما يراها، وادى خدمة كبيرة على مرّ السنين، لأصدقائه ومؤيديه في الخارج. فقد انطلق من الفرضية الصحيحة بأن الصحافة الإسرائيلية كانت، ومن المفارقة، صادقة ومفيدة فيما يتعلق بإسرائيل، أكثر من وسائل الإعلام العربية والغربية، ليعمل بدأب على ترجمة آلاف المقالات من الصحافة العبرية، وتذييلها بشروحات، ثم نسخها وإرسالها الى الخارج. ومن المستحيل المغالاة في تقدير هذه الخدمة. وبالنسبة إلي كشخص تكلم وكتب عن فلسطين، ما كنت لأستطيع أن أفعل ما فعلته من دون أوراق شاحاك، ولا بالطبع، من دون قدوته كباحث عن الحقيقة والمعرفة والعدالة. إن الأمر هو بكل هذه البساطة، ولذلك، فأنا مدين له بدين هائل من العرفان بالجميل. ولقد قام شاحاك بهذا الجهد على نفقته الخاصة في معظم الأحيان، وعلى حساب وقته الخاص أيضاً. فالهوامش التي اضافها والمقدمات الموجزة التي كتبها لمختاراته الشهرية من الصحف، لا تُقدّر بثمن، لفطنتها الجارحة

وجزالة معانيها العميقة المفيدة، وما تتميز به من الصبر اللامتناهي الذي يتحلى به المعلم. وكان شاحاك طوال هذا الوقت، يواصل بالطبع، أبحاثه العلمية وعمله التعليمي، الذي لم يكن له أي علاقة إطلاقاً، بترجماته وحواشيها التفسيرية.

ولقد وجد شاحاك بطريقة ما، الوقت اللازم ليصبح أكثر الأشخاص الذين فرعتهم في حياتي تبحّراً في العلم. ومعرفته في الموسيقى والأدب وعلم الاجتماع، وفي التاريخ قبل كل شيء – في أوروبا وآسيا وأماكن أخرى – لا ندّ له فيها بحسب خبرتي. ولكنه يتفوق على الكثيرين غيره كعالم في اليهودية، بما أن اليهودية هي التي شغلت طاقاته كعالم وكنشيط سياسي منذ البداية. وفي السنوات الأخيرة بدأت تتخلل ترجماته تقارير سرعان ما أصبحت وثائق شهرية، يتألف الواحد منها من بضعة آلاف كلمة في الموضوع الواحد. ومن هذه التقارير على سبيل المثال، تقرير حول الخلفية الحاخامية الحقيقية لاغتيال اسحاق رابين، وآخر حول الأسباب التى من أجلها ينبغى أن تعقد إسرائيل سلاماً مع سوريا (لأن سوريا، برأيه المثير للدهشة، هي البلد العربي الوحيد الذي يستطيع فعلاً، أن يؤذي إسرائيل عسكرياً). وكانت هذه التقارير عبارة عن خلاصات من الصحافة لا تُقدّر بثمن، بالإضافة الى تحليلات ثاقبة الرأي، وغالباً ما كانت ملهمة، للاتجاهات والمسائل الجارية، التي تطمسها عادة وسائل الإعلام العادية، أو تغفل الإبلاغ عنها.

لقد عرفت شاحاك دائماً، مؤرخاً عظيماً ومفكراً لامعاً وعالماً جامعاً للعلوم، ونشيطاً سياسياً، ولكنني، وكما قلت أعلاه، ما لبثت أن أدركت بأن "هوايته" الأساسية كانت دراسة اليهودية والتقاليد الحاخامية والتلمودية، والتبحّر في هذا الموضوع. ولذلك، فإن هذا الكتاب مساهمة ذات تأثير كبير في هذه الأمور. فهو ليس أقل من تاريخ موجز لليهودية الكلاسيكية واليهودية الأحدث، بقدر ما تنطبق على فهم لإسرائيل الحديثة. فشاحاك يظهر بأن الوصايا المبهمة والشوفينية الضيقة، ضد الآخرين غير المرغوب فيهم، وعلى اختلافهم، يمكننا أن نجدها في اليهودية (وفي غيرها طبعاً، من تقاليد الديانات الموحدة الأخرى)، ولكنه ينطلق من ذلك ليظهر التواصل بينها وبين الطريقة التي تعامل بها إسرائيل الفلسطينيين والمسيحيين وغيرهم من غير اليهود. وتبرز بذلك، صورة ذات هول عظيم، عن التحامل والنفاق واللاتسامح الدينى. والمهم فى ذلك، أن وصف شاحاك لا يكذّب الروايات حول ديمقراطية اسرائيل التي تحفل بها وسائل الإعلام الغربية فحسب، بل يتهم ضمناً أيضاً، الزعماء والمفكرين العرب لرؤيتهم الجاهلة بصورة فاضحة، لهذه الدولة، خصوصاً عندما يقولون لشعوبهم كما لو كانوا هم الصادقون دون غيرهم، بأن إسرائيل قد تغيّرت فعلاً، وتريد الآن، السلام مع الفلسطينيين والعرب الآخرين.

إسرائيل شاحاك رجل فائق الشجاعة، وينبغي أن يُكرّم للخدمات التي قدّمها للإنسانية. ولكن المثال على العمل الدؤوب والطاقة الأخلاقية التي لا تفتر، والتألق الفكري، الذي وضعه شاحاك قدوة تُحتذى، هو في عالمنا اليوم، إحراج للحالة الراهنة ولجميع الذين تعني لهم كلمة "مثير للجدل" كل ما هو "مكدّر" و "باعث على الاضطراب".

ويغمرني سرور عظيم لأن عملاً موسعاً من أعماله سيصدر للمرة الأولى، باللغة العربية، إلا أنني على يقين بأن ما يقوله في كتابه "الديانة اليهودية وتاريخ اليهود" سيكون مصدر انزعاج لقرائه العرب أيضاً. وأنا على ثقة بأنه سوف يقول بأن هذا مدعاة سرور له.

إدوارد سـعيد
نيويـورك، كـانون الثـاني / ينـاير 1996

مقدمة

أواخر الخمسينات، أخبرني ناقل الأقاويل، الذائع الصيت، والمؤرخ بين الحين والآخر، جون ف. كندي، كيف كان هاري س. ترومان، منبوذاً من الجميع عندما تقدم لترشيح نفسه للرئاسة عام 1948. فكان أن جاءه صهيوني أميركي الى القطار الذي كان يستخدمه لتنقلاته فى حملته الانتخابية، حاملاً له حقيبة تحتوي على مليونى دولار عداً ونقداً. "لهذا السبب كان اعترافنا بإسرائيل على هذه الدرجة من السرعة". ولأننا لم نكن معادين للسامية، لا أنا ولا جاك، (على عكس والده وجدي)، فقد اعتبرنا هذه القصة مجرد قصة مسلية أخرى عن ترومان، وعن الفساد الهادئ للسياسة الأمريكية.

ولسوء الحظ، فقد نتج عن الاعتراف المتسرّع بإسرائيل كدولة، 45 عاماً من التشويش الفتّاك، وتدمير ما ظن رفاق الدرب الصهيونيون أنه سيغدو دولة تعددية – تكون وطناً للسكان الأصليين من مسلمين ومسيحيين ويهود، ووطناً مستقبلياً لمهاجرين مسالمين من اليهود الأوروبيين والأميركيين، ووطناً للذين تظاهروا منهم بالاعتقاد أن وكيل العقارات الأكبر في السماء، قد وهبهم، والى الأبد، أراضي يهودا والسامرة. وبما أن العديد من المهاجرين كانوا من الاشتراكيين الجيدين في أوروبا، فلقد افترضنا بأنهم لن يسمحوا للدولة الجديدة بأن تتحول الى دولة يحكمها رجال الدين، وبأن السكان الأصليين الفلسطينيين يمكنهم العيش معهم كمساوين لهم. ولكن هذا لم يُقدّر له أن يحصل.

ولست في صدد سرد قصص الحروب وإنذارات الخطر في هذه المنطقة التعسة. ولكنني سأقول بأن الاختراع المتسرع لإسرائيل قد سمّم الحياة السياسية والفكرية في الدولة التي تُعتبر راعية لإسرائيل – والمستبعد أن تكونها في الوقت نفسه – عنينا بذلك الولايات المتحدة.

وأقول الدولة التي كانت رعايتها لإسرائيل مستبعدة، لأنه لا توجد أقلية أخرى في التاريخ الأمريكي، استولت في وقت من الأوقات، على هذا القدر من الأموال من دافعي الضرائب الأميركيين، من أجل استثمارها في "وطن". فالأمر يبدو كما لو كان دافع الضرائب الأميركي قد أجبر على دعم البابا في إعادة فتحه للدول البابوية لمجرد أن ثُلث شعبنا من الروم الكاثوليك. فلو جرت محاولة كهذه لكانت أثارت ضوضاء عظيمة، ولكان الكونغرس الأميركى قال "لا". ولكن أقلية دينية لا يجاوز تعدادها الاثنين بالمائة، اشترت أو هدّدت 70 عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي (الثلثين اللازمين في هذا المجلس، لتجاوز فيتو رئاسي غير مرجّح)، في الوقت الذي تتمت فيه بتأييد وسائل الإعلام.

ولشدّ ما أنا معجب، من بعض الوجوه، بالطريقة التي قام بها اللوبي الإسرائيلي بعمله لضمان ذهاب بلايين الدولارات، سنة بعد أخرى، لجعل إسرائيل "حصناً ضد الشيوعية". إذ لم يكن هنالك وجود كبير في المنطقة، لا للاتحاد السوفييتي ولا للشيوعية. ولكن ما تمكنت أميركا من فعله هو أن تجعل العالم العربي، الذي كان ودياً في يوم ما، يتحول ضدنا. وفي هذه الأثناء، أصبح التضليل الإعلامي حول ما يجري في الشرق الأوسط، أكثر مما كان عليه في السابق، والضحية الرئيسية لهذه الأكاذيب الرخيصة – إذا وضعنا دافع الضرائب الأميركي جانباً – هي اليهود الأميركيون الذين يستأسد عليهم باستمرار،

ارهابيون محترفون من أمثال بيغن وشمير. وما هو أسوأ من ذلك، أن المفكرين اليهود الأميركيين. باستثناء قلة شريفة، قد تخلّوا عن الليبرالية لصالح تحالفات معتوهة مع اليمين المسيحي (المعادي للسامية) ومع المجمّع الصناعي – العسكري. ولقد كتب أحدهم بطريقة غير مبالية، في العام 1985، يقول بأن اليهود وجدوا لدى وصولهم الى الساحة الأميركية، أن "الرأي العام الليبرالي والسياسيين الليبراليين أكثر مؤانسة في مواقفهم، وأكثر إحساساً بالاهتمامات اليهودية" ولكن المصلحة اليهودية الآن، تقضي بالتحالف مع الأصوليين البروتستانت لأنه بعد ذلك كله، "ما الفائد من أن يتمسك اليهود، بتصلب ورياء، بآراء الماضي القريب؟" عند هذه النقطة انشق اليسار الأميركي، أما هؤلاء منا الذين انتقدوا حلفاء الأمس اليهود لانتهازيتهم الضالة، فقد كوفئوا في الحال، بالصفة التقليدية نفسها، ألا وهي "معاداة السامية" أو بصفة "اليهود الذين يكرهون أنفسهم".

ولحسن الحظ أن صوت العقل حيّ يُرزق وبحالة جيدة، وفي إسرائيل دون غيرها من البلدان. ومن القدس، لا يكنّ إسرائيل شاحاك أبداً، عن التحليل، ليس فقط عن تحليل سياسة إسرائيل المكربة اليوم، بل التلمود نفسه أيضاص، وتأثير التقاليد الحاخامية برمتها، على الدولة الصغيرة التي تنوي المؤسسة الحاخامية اليمينية تحويلها الى دولة لليهود فقط، يحكمها رجال الدين. وأنا أقرأ شاحاك منذ سنوات. إنه ينظر نظرة الهجّاء الى التشويشات التى نجدها فى أي ديانة تحاول أن تعقلن ما هو غير عقلانى. إن لشاحاك نظرة العالم الثاقبة الى التناقضات النصية. إنه متعة للقراءة عندما يكتب عن كاره الأغيار، الطبيب العظيم بن ميمون.

وغنّي عن القول بأن السلطات الإسرائيلية تدين شاحاك. ولكن ماذا تملك أن تفعل مع استاذ كيمياء متقاعد، وُلدفي وارسو عام 1993، وأمضى طفولته في معسكر الاعتقال فى بيلسن. لقد جاء الى إسرائيل فى العام 1945، وخدم فى الجيش الإسرائيلى، ولكنه لم يصبح ماركسياً في السنوات التي كانت فيها الماركسية شائعة. فقد كان – وما زال – شخصاً معنياً بخير الإنسان، يحتقر الإمبريالية أن بإسم الرب إبراهيم أم بإسم جورج بوش. وكان على حد سواء، يعارض بفطنة ومعرفة واسعة، النزعة الاستبدادية فى اليهودية. فشاحاك، كما لو أنه كان توماس باين بالإضافة الى كونه متعلماً علماً عالياً، يوضح لنا الاحتمال الذي ينتظرنا، والتاريخ الطويل خلفنا أيضاً، وهكذا، يواصل تحكيم العقل، سنة بعد أخرى وهؤلاء الذين سينتصحون بكلامه سيكونون بالتأكيد، أكثر حكمة – وهل أجرؤ على القول بأنهم سيكونون أفضل؟ إنه النبي العظيم الأخير إن لم يكن آخر الأنبياء العظام.

بقلم: غور فيدال

الفصل الأول

مقدمة

- أكتب هنا ما أعتقده الحقيقة، فقصص الإغريق كثيرة، وهي في رأيي قصص سخيفة.

(هيكاتيوس ميليتوس – كما نقلها هيرودوتس)

- أفلاطون صديق، ولكن الحقيقة صديق أعظم.

(صياغة جديدة لعبارة أرسطو في كتابه "الأخلاق")

- في الدولة الحرة يستطيع كل إنسان أن ينكر كما يشاء، وأن يقول ما ينكر به.

(سبينوزا)

على الرغم من أن هذا الكتاب مكتوب باللغة الإنكليزية وموجه الى شعوب تعيش خارج دولة إسرائيل، فإنه، في ناحية من نواحيه، يشكل استمراراً لنشاطاتي السياسية كيهودي إسرائيلي. لقد بدأت هذه النشاطات عام 1965 – 1966، إثر احتجاج تسبب، آنذاك، في فضيحة كبيرة. فقد كنت شاهداً على يهودي متعصب لا يسمح باستخدام هاتفه في أحد أيام السبت، لاستدعاء سيارة إسعاف من أجل شخص غير يهودي صودف انهياره فى الضاحية التى يسكنها بالقدس. وعوضاً من أن ألجأ بكل بساطة، الى نشر نبأ هذه الحادثة في الصحف، طلبت اجتماعاً مع أعضاء هيئة المحكمة الحاخامية لمدينة القدس، المؤلفة من حاخامات تعيّنهم دولة إسرائيل. وقد سألت هؤلاء عما إذا كان مثل التصرف يتوافق مع تفسيرهم للديانة اليهودية، فأجابوني بأن هذا اليهودي، موضوع البحث، كان مصيباً في تصرفه، بل تقياً صالحاً. ودعموا قولهم هذا بإحالتي الى فقرة في مختصر معتمد للشرائع التلمودية، كان قد كُتب في هذا القرن. فما كان مني إلا أن كتبت تقريراً بالحادثة، لليومية العبرية الرئيسية "هآرتس"، التي تسبب نشرها للقصة بفضيحة إعلامية.

وكانت النتائج الناجمة عن الفضيحة بالنسبة إلي، نتائج سلبية نوعاً ما. فلا السلطات الحاخامية الإسرائيلية ولا نظيراتها في الشتات، عكست حكمها القاتل بأن اليهودي لا يجوز له انتهاك حرمة السبت من أجل إنقاذ حياة أحد الأغيار (غير اليهود). ولقد أضافوا الى حكمهم هذا، الكثير من الهذر المغلّف بالتقوى، والذي كان مفاده أن عملاً من هذا النوع، إذا كانت نتيجته تُعرّض اليهود، فقط، للخطر، يصبح حينئذ انتهاك حرمة السبت من أجلهم انتهاكاً جائزاً. ولما كنت قد بدأت في شبابي بدراسة الشرائع التلمودية التي تحكم العلاقات بين اليهود وغير اليهود، بات واضحاً بالنسبة إلي، وبالاستناد الى هذه المعرفة التي اكتسبتها، أن لا الصهيونية، ولا حتى في جزئها الذي يبدو علمانياً، ولا السياسة الإسرائيلية منذ ولادة دولة إسرائيل، ولا سياسات مؤيدي إسرائيل اليهود، في الشتات، خصوصاً، يمكنها أن تكون مفهومة ما لم يُؤخذ في الحسبان التأثير الأعمق لهذه الشرائع وللنظرة الى العالم الت يتخلقها وتعبّر عنها في آن. وإن المناسبات الفعلية التي انتهجتها إسرائيل بعد حرب الأيام الستة، ولا سيما سياسة التمييز العنصري التى يتسم بها الحكم الإسرائيلى فى المناطق، وموقف الأكثرية اليهودية من مسألة حقوق الفلسطينيين، حتى كفكرة مجرّدة، قد عززت قناعتي ليس إلا.

وإنني لدى إدلائي بهذا القول، لا أحاول أن أتجاهل الاعتبارات السياسية والاستراتيجية التي تكون قد أثرت في حكام إسرائيل. فما أقوله بكل بساطة، هو أن السياسة الفعلية

هي تفاعل بين الاعتبارات الواقعية (صحيحة كانت أم خاطئة، أو برأيي، خلقية كانت أم غير خلقية) وبين التأثيرات الأيديولوجية التي تميل الى أن تكون أكثر نفوذاً كلما كانت مناقشتها أقل، وكلما كان "جرّها الى تحت الأضواء" أقل. فأي شكل من أشكال العنصرية والتمييز وكراهية الغير يصبح أقوى وأكثر نفوذاً سياسياً إذا اعتبره المجتمع الذي يتعاطاه أمراً مسلّماً به. ويصح هذا القول بصفة خاصة، إذا كانت مناقشته ممنوعة، إن رسمياً أم بالإتفاق الضمني. وعندما تكون العنصرية والتمييز وكراهية الغير سائدة في وسط اليهود وموجهة ضد الأغيار وتوقدها الدوافع الدينية، فإنها تصبح كحالتها النقيضة، أي كمعاداة السامية ودوافعها الدينية. ولكن في الوقت الذي تناقش فيه معاداة السامية اليوم، نجد تجاهلاً عاماً خارج إسرائيل أكثر مما هو في داخلها، لوجود العنصرية والتمييز وكراهية الغير بالذات، في وسط اليهود ضد غير اليهود.

تعريف الدولة اليهودية

لا يمكننا أن نفهم، حتى ولا مفهوم إسرائيل كـ "دولة يهودية"، كما تعرّف إسرائيل نفسها رسمياً، من دون بحث المواقف اليهودية السائدة، تجاه غير اليهود. والتصور الخاطئ الشائع بأن إسرائيل ديمقراطية حقيقية، حتى من دون أن نراعى حكمها فى المناطق المحتلة، هو تصوّر ناشئ عن رفض مواجهة المغزى في مصطلح "الدولة اليهودية" بالنسبة الى غير اليهود. وفي رأيي، أن إسرائيل كدولة يهودية، تشكل خطراً ليس على نفسها وسكانها فحسب، بل على اليهود كافة وعلى الشعوب والدول الأخرى جميعاً في الشرق الأوسط وما ورائه. كما أن الدول أو الكيانات الشرق أوسطية الأخرى، التي تعرّف نفسها كدول أو كيانات "عربية" أو "إسلامية"، كتعريف إسرائيل لنفسها على أنها "دولة يهودية"، فإنني أعتبرها بأنها تشكل بدورها خطراً أيضاً. ولكن في الوقت الذي يُبحث فيه هذا الخطر على نطاق واسع، فإننا نرى أن الخطر المتأصل في الطابع اليهودي لدولة إسرائيل، ليس موضوعاً مطروحاً على بساط البحث.

لقد كان لمبدأ إسرائيل كـ"دولة يهودية" أهميته العظمى لدى السياسيين الإسرائيليين منذ نشوء الدولة. وقد غُرس هذا المبدأ في أذهان السكان اليهود بمختلف الوسائل التي يمكن تصورها . وفي أوائل الثمانينات، عندما برزت أقلية من اليهود الإسرائيليين تعارض هذا المبدأ، أقرّت الكنيست عام 1985، وبأغلبية ساحقة، قانوناً دستورياً (أي قانون يتقدم على مواد القوانين الأخرى كافة والتي لا يمكن إلغاؤها إلا بإجراء خاص). وبموجب هذا القانون، لم يعد يسمح لأي حزب بالمشاركة في انتخابات الكنيست إذا كان برنامجه يعارض، علناً، مبدأ "الدولة اليهودية"، أو إذا كان يقترح تغييره بالوسائل الديمقراطية. وإنني، شخصياً، أعارض هذا المبدأ الدستوري، فالتبعات القانونية بالنسبة إلي، تعني بأنني لا أستطيع، في دولة أنا مواطن فيها، أن أنتمي الى حزب له مبادئ اتفق معه فيها ويكون مسموحاً له بالمشاركة فى انتخابات الكنيست. وحتى هذا المثل يبيّن بأن دولة إسرائيل ليست دولة ديمقراطية بسبب تطبيقها لإيديولوجية يهودية موجهة ضد الأغيار، وضد اليهود المعارضين لهذه الأيديولوجية، أجمعين. ولكن الخطر الذي تمثله هذه الأيديولوجية المهيمنة لا يقتصر تأثيره على الشؤون الداخلية فحسب، بل على السياسات الخارجية الإسرائيلية أيضاً. وسيستمر هذا الخطر بالنمو ما دام تعزيز حركتين ناميتين مستمراً في الوقت الحاضر: ازدياد الطابع اليهودي لدولة إسرائيل، وازدياد قوتها، وخصوصاً القوة النووية. أما ازدياد النفوذ الإسرائيلى فى المؤسسة السياسية الأميركية فهذا عامل آخر ينذر بالشؤم. ولذلك، فإن المعلومات الدقيقة حول اليهودية، وخصوصاً حول معاملة إسرائيل لغير اليهود، ليست، الآن، على الصعيد السياسي، معلومات مهمة فحسب، بل حيوية أيضاً.

ودعوني أبدأ بالتعريف الإسرائيلي لمصطلح "اليهودي"، لأظهر الفارق الأساسي بين إسرائيل كـ"دولة يهودية"، وبين أكثرية الدول الأخرى. فإسرائيل بحسب هذا التعريف، هي "مُلْكٌ" لأشخاص تعرّفهم السلطات الإسرائيلية كـ"يهود" بصرف النظر عن المكان الذي يعيشون فيه، وتعود اليهم وحدهم. أما من ناحية أخرى، فهى لا "تعود" لمواطنيها من غير اليهود، الذي تُعتبر مكانتهم لديها مكانة دونية، حتى على الصعيد الرسمي.

وهذا يعني عملياً، بأن أفرادا قبيلة من قبائل البيرو، إذا أعتنقوا الديانة اليهودية، واعتُبروا بالتالي من اليهود، يحق لهم أن يصبحوا مواطنين إسرائيليين على الفور، وأن يستفيدوا من حوالي 70 بالمائة من أراضي الضفة الغربية (ومن 92 بالمائة من مساحة إسرائيل الأصلية)، المكرّسة رسمياً، لصالح اليهود فحسب. أما الأغيار كافة (وليس الفلسطينيون وحدهم)، فإنهم يُمنعون من الاستفادة من هذه الأراضي. (وينطبق هذا المنع حتى على الإسرائيليين العرب الذين خدموا في الجيش الإسرائيلي وبلغو رُتباً عالية فيه). والحالة التي تشمل البيروفيين الذين اعتنقوا اليهودية، قد حصلت، بالفعل، منذ بضع سنوات. وقد جرى توطين هؤلاء اليهود الجدد في الضفة الغربية، بالقرب من نابلس، في أراض يُستبعد منها المواطنون غير اليهود استبعاداً رسمياً. وتقوم حكومات إسرائيل كافة بمجازفات سياسية كبيرة، بما فيها لامجازفة بالحرب، من أجل هذه المستوطنات، التي يقتصر تأليفها على أشخاص معرّفين كـ"يهود" (وليس كـ"إسرائيليين"، كما تدعي، كاذبة، غالبية وسائل الإعلام)، ومن أجل أن تكون مستوطنات خاضعة لسلطة "يهودية" فقط.

وأظن بأن المسيحيين، إذا اقترحوا أن تتحول الولايات المتحدة، أو المملكة المتحدة الى "دولة مسيحية" تعود فقط لمواطنين يعرّفون رسمياص، كـ"مسيحيين"، فإن يهود الولايات المتحدة، أو بريطانيا، سوف يعتبرون ذلك معاداة للسامية. ونتيجة عقيدة من هذا النوع هي أن اليهود الذين يعتنقون المسيحية سوف يصبحون مواطنين كاملين بسبب تحولهم. وينبغي لنا أن نتذكر بأن فوائد اعتناق ديانات أخرى كانت معروفة جيداً من اليهود، من تاريخهم الخاص. فعندما كانت الدول المسيحية والإسلامية تميّز ضد الأشخاص كافة، الذين لا ينتمون الى ديانة دولة، بمن فيهم اليهود، كان اليهود يزيلون هذا التمييز على الفور، بتحولهم عن ديانتهم. والتمييز الذي تعامل به دولة إسرائيل الشخص غير اليهودي سيتوقف في اللحظة التي يعتنق فيها، هو أو هي، الديانة اليهودية. وهذا يظهر ببساطة، بأن نوع الحصرية نفسه الذي تعتبره أكثرية يهود الشتات كمعاداة للسامية، تعتبره أاكثرية اليهود كافة، كيهودية. ومعارضة معاداة السامية والشوفينية اليهودية على حد سواء، أمر يُعتبر في وسط اليهود، وعلى نطاق واسع، كمثل "كراهية الذات". وهذا مفهوم اعتبره كلاماً فارغاً.

وهكذا، يصبح معنى مصطلح "اليهودي"، ومشتقاته، بما فيها اليهودية، معنى مهماً فى مضمون السياسة الإسرائيلية، وبمقدار أهمية معنى "الإسلامي"، عندما تستخدم إيران هذا المصطلح رسمياً، ومعنى "الشيوعي" عندما كان الاتحاد السوفييتي يستخدم هذا المصطلح رسمياً. إلا أن معنى مصطلح "اليهودي" كما هو شائع استخدامه، معنى غير واضح، لا بالعبرية ولا عندما يُترجم الى لغات أخرى، ولذلك كان ينبغي تعريفه رسمياً.

فبحسب القانون الإسرائيلي يُعتبر الشخص "يهودياً" إذا كانت والدته أو جدته، أو جدته لأمه، أو جدته لجدته، يهودية في ديانتها؛ أو إذا اعتنق الشخص الديانة اليهودية بطريقة ترضي السلطات الإسرائيلية، ولكن شرط ألا يكون هذا الشخص قد تحول في وقت من الأوقات، عن اليهودية واعتنق ديانة أخرى، ففي هذه الحالة تقلع إسرائيل، عن اعتباره "يهودياً". ويمثل الشرط الأول من الشروط الثلاثة، التعريف التلمودي لـ"من هو اليهودي"

وهو التعريف الذي تعتمده الأرثوذوكسية اليهودية. ويعبرف التلمود والشرع الحاخامي اللاحق له أيضاً، بتحول غير اليهودي الى اليهودية (مثلما يعترف بشراء اليهودي لعبد غير يهودي، يليه نوع آخر من التحول عن ديانة واعتناق أخرى) كطريقة من الطرق، لكي يصبح المرء يهودياص، شرط أن يثجري مراسم التحول بالطريقة الصحيحة، حاخامات مخولون هذه السلطة. وهذه "الطريقة الصحيحة" تستلزم بالنسبة الى الإناث، معاينتهن من ثلاثة حاخامات وهنّ عاريات في "حمام التطهير"، وهو طقس وإن كان معروفاً من قراء الصحف العبرية كافة، فإن وسائل الإعلام باللغة الإنكليزية غالباً ما تحجم عن ذكره، على الرغم من كونه، بلا ريب، موضوعاً مثيراً لاهتمام بعض القراء. وآمل بأن يكون هذا الكتاب بداية لعملية تُصحح هذا النقص.

ولكن هناك ضرورة ملحة أخرى لتعريف من هو اليهودي ومن هو غير اليهودي. فدولة إسرائيل تميّز لصالح اليهود وضد غير اليهود، فى العديد من مجالات الحياة؛ وأننى أعتبر ثلاثة منها المجالات الأهم من غيرها: حقوق الإقامة، الحق بالعمل، والحق بالمساواة أمام القانون. ويقوم التمييز في مسألة الإقامة على حقيقة أن نحو 92 بالمائة من أرض إسرائيل هي ملك للدولة، وتديرها سلطة أرض إسرائيل بموجب قوانين أصدرها الصندوق القومي اليهودي (J.N.F.) للمنظمة الصهيونية العالمية. وينكر الصندوق القومي اليهودي في قوانينه الحق بالإقامة والحق بمزاولة عمل تجاري، وغالباً، حق العمل أيضاً، على كل من هو غير يهودي، لمجرد أنه ليس يهودياً، بينما لا يُمنع اليهود من الإقامة ومزاولة العمل التجاري، في أي مكان في إسرائيل. وإذا جرى تطبيق مثل هذه الممارسة التمييزية ضد اليهود في أي دولة أخرى، فإن هذه الدولة ستوصم فوراً، وعن حق، بمعاداة السامية، وستوقد بلا شك، احتجاجات شعبية واسعة النطاق. ولكن عندما تُطبق إسرائيل هذا التمييز كجزء من "ايديولوجيتها اليهودية"، فإن هذه الممارسة تحظى عادة، بتجاهل مجتهد، أو بتبريرات إذا ذُكرت، وهي نادراً ما تذكر.

أما نكران حق العمل فيعني بأن غير اليهود يمنعون رسمياً، من العمل على الأراضي التي تديرها سلطة أراضي إسرائيل، وفق أنظمة الصندوق القومي اليهودي. ولا شك أن هذه الأنظمة لا تُنفذ دائماً، ولا حتى في أغلب الأحيان، ولكنها أنظمة موجودة. وتحاول إسرائيل من وقت الى آخر، تنظيم حملات تنفيذ بالقوة، بواسطة سلطات الدولة، مثلما هو الحال، على سبيل المثال، عندما تعمل وزارة الزراعة ضد "وباء السماح لعمال عرب بجني محاصيل بساتين الفاكهة العائدة ليهود، والقائمة على أرض قومية [أي على أرض عائدة لدولة إسرائيل]"، حتى ولو كان العرب، موضوع البحث، مواطنين إسرائيليين. وتتشدد إسرائيل أيضاً، في منع اليهود الذين يستوطنون أرضاً من "الأراضي القومية" من إعادة تأجير ولو جزء من أرضهم الى أشخاص عرب، حتى لوقت قصير؛ ويعاقب عادة، الذين يفعلون ذلك بغرامات باهظة. ولكن لا يوجد خطر يحول دون إقدام المواطنين غير اليهود على تأجير أراضيهم الى مواطنين يهود. وهذا يعني، في حالتي الخاصة، بأنني أمتلك الحق، بفضل كوني يهودياً، باستئجار بستان من يهودي آخر، لقطف ثماره، ولكن غير اليهودي، سواء أكان مواطناً إسرائيلياً أم مقيماً غريباً فيها، لا يمتلك هذا الحق.

ولا يتمتع مواطنو إسرائيل من غير اليهود بحق المساواة أمام القانون. ويُعبّر عن هذا التمييز العديد من القوانين الإسرائيلية، التي تحجم عادة، تلافياً للحرج، عن ذكر مصطلحي "اليهودي" و "غير اليهودي" صراحة، كما هي الحال في قانون العودة الأساسي. وبحسب هذا القانون، فإن الأشخاص المعترف بهم رسمياً، دون غيرهم بأنهم "يهود" لهم الحق التلقائي بدخول إسرائيل والاستيطان فيها. ويتسلم هؤلاء بصورة تلقائية، "شهادة هجرة"، تزودهم فور وصولهم بـ"الجنسية نظراً لعودتهم الى الوطن اليهودي"، ويحق لهم الحصول على تقديمات مالية عديدة، تتفاوت نوعاً ما، بحسب البلد الذي هاجروا منه. فاليهود الذين يهاجرون من دول الاتحاد السوفييتي

السابق، يحصلون على "هبة استيطان" تزيد على 20000 دولار للعائلة الواحدة. وبموجب هذا القانون، يكتسب جميع اليهود الذين يهاجرون الى إسرائيل، وعلى الفور، حق التصويت في الانتخابات، وحق انتخابهم ممثلين في الكنيست – حتى وإن كانوا لا يتكلمون كلمة عبرية واحدة.

وتستعيض القوانين الإسرائيلية الأخرى عن هذه المصطلحات بعبارات تفوقها بلادة، مثل عبارتي "كل من يستطيع الهجرة وفق قانون العودة"، و "كل من لا يحق له الهجرة بموجب قانون العودة". وبالاستناد الى هذا القانون، موضوع بحثنا، تُمنح التقديمات عندئذ، للمدرجين في الفئة الأولى، وتُحجب بانتظام، عن المدرجين في الفئة الثانية. وبطاقة الهوية التي يفترض على الجميع حملها في كل الأوقات، هي الوسيلة الروتينية لفرض التمييز في الحياة اليومية.

فبطاقات الهوية تسجل "القومية" الرسمية للشخص؛ ويمكن لهذه "القومية" أن تكون "يهودية" أو "عربية" أو "درزية" أو ما شابه ذلك، ولكن ليس "إسرائيلية"، وهذا استثناء ذو مغزى. وكان الإسرائيليون الذين أرادوا أن يوصفوا رسمياً كإسرائيليين في بطاقات هوياتهم، أو حتى كإسرائيليين يهود، قد فشلوا في محاولاتهم لإجبار وزارة الداخلية على السماح لهم بذلك. أما الذين حاولوا ذلك فعلاً، فقد تلقوا كتاباً من وزارة الداخلية مضمونه: "تقرر الامتناع عن الاعتراف بقومية إسرائيلية". ولكن هذا الكتاب لم يحدد الجهة التي اتخذت هذا القرار، ومتى اتخذته.

وتميّز قوانين وأنظمة عديدة في إسرائيل لصالح الأشخاص المعرّفين أشخاصاً "يستطيعون الهجرة وفق قانون العودة"، مما يستدعي معالجة مستقلة للموضوع. ولكننا نستطيع هنا، النظر في مثل واحد قد يبدو تافهاً بالمقارنة مع قيود الإقامة، ولكنه مع ذلك، مثل مهم لأنه يميط اللثام عن النوايا الحقيقية للمشترع الإسرائيلي. فالمواطنون الإسرائيليون الذين غادروا البلد لبعض الوقت، ولكنهم معرّفون كمواطنين "يستطيعون الهجرة وفق قانون العودة"، هم مواطنون مؤهلون للحصول على منافع جمركية سخية لدى عودتهم، وعلى معونات مالية لتعليم أولادهم في المدارس الثانوية، وعلى هبة أو قرض بشروط سهلة، لشراء شقة سكنية، بالإضافة الى تقديمات أخرى أيضاً. أما المواطنون الذين لا يمكن تعريفهم بهذا الشكل، أي مواطنو إسرائيل من غير اليهود، فلا يحصلون على شيء من هذه التقديمات. والقصد الواضح من مثل هذه الإجراءات التمييزية، هو تقليص عدد المواطنين الأغيار في إسرائيل، لجعل إسرائيل دولة أكثر "يهودية".

عقيدة الأرض المستردة

تنشر إسرائيل في وسط مواطنيها اليهود عقيدة حصرية لاسترداد الأرض. ويمكننا من خلال هذه العقيدة، التي تُلقن لتلامذة المدارس في إسرائيل، أن ندرك جيداً هدفها الرسمي الرامي الى تقليص عدد المواطنين غير اليهود الى حدّه الأدنى. فهؤلاء التلامذة يُلقنون بأن هذه العقيدة هي عقيدة قابلة للتطبيق، إما في أنحاء دولة إسرائيل وإما، من بعد العام 1967، في أنحاء ما يُشار اليه كـ"أرض" إسرائيل. وبحسب هذه الأيديولوجية، فإن الأرض التي "استُردت" هي الأرض التي انتقلت من ملكية غير يهودية الى ملكية يهودية. وهذه الملكية يمكنها أن تكون إما ملكية خاصة أو ملكاً للصندوق القومي اليهودي أو للدولة اليهودية. أما الأرض التي تعود الى غير اليهود، فإنها، على العكس من ذلك، تُعتبر أرضاً "غير مستردة". وهكذا، إذا كان يهودي قد ارتكب أبشع الجرائم، التى يمكن تصورها، وأقدم على شراء قطعة أرض من شخص فاضل غير يهودي، تصبح الأرض "غير المستردة"، بموجب هذا التبادل، أرضاً "مستردة". ولكن إذا أقدم شخص فاضل غير يهودي، على شراء قطعة أرض من أسوأ اليهود، فإن الأرض

التي كانت سابقاً، أرضاً طاهرة و"مستردة" تصبح أرضاً "غير مستردة" مرة أخرى. والنتيجة المنطقية لمثل هذه الأيديولوجية هي الطرد، أو ما يسمى "النقل" (Transfer)، الذي يطال المواطنين الأغيار كافة، من مساحلة الأرض التي "استُردت". وبالتالي، فإن يوتوبيا "الأيديولوجية اليهودية" التي تبنتها دولة إسرائيل هي الأرض "المستردة" بأكملها، والتي لا يملكها الأغيار أو يعملون فيها. ولقد عبّر زعماء حركة العمل الصهيونية عن هذه الفكرة المنفّرة تماماً، تعبيراً كان غاية في الوضوح.

ويخبرنا ولتر لاكير، وهو الصهيوني المخلص، في كتابه History of Zionism (1)، كيف كان أحد هؤلاء الآباء الروحيين، وهو أ. د. غوردون، الذي توفي عام 1919، "معارضاً للعنف مبدئياً، ويبرر الدفاع عن النفس فقط في ظروف بالغة الشدة. ولكنه وأصدقاءه، أرادوا لكل شجرة ولكل أجمة في الوطن اليهودي، أن تُزرع على يد الرواد اليهود فحسب، وليس على يد أحد غيرهم". وهذا يعنى بأنهم أرادوا للآخرين كافة أن يرحلوا ويتركوا الأرض "ليستردها" اليهود، أما خلفاء غوردون فقد أضافوا من العنف أكثر مما كان يقصده هو نفسه، ولكن بقي مبدأ "الاسترداد" والنتائج المترتبة عليه.

وعلى نحو مماثل، فإن الكيبوتس، الذي كان الترحيب به واسع النطاق كمحاولة لخلق المجتمع المثالي، كان وما زال يوتوبيا اقتصادية، لأنه حتى ولو كان مؤلفاً من الملحدين فإنه لا يقبل فى وسطه، مبدئياً، بأعضاء من العرب، ويطالب الأعضاء المحتملين من قوميات أخرى، بالتحول أولاً عن ديانتهم واعتناقهم الديانة اليهودية. ولا عجب أن نعتبر شبيبة الكيبوتس أكثر شرائح المجتمع اليهودي الإسرائيلي ميلاً للقتال.

وإن هذه الأيديولوجية الحصرية، هي التي حددت عمليات الاستيلاء على الأرض في إسرائيل، في الخمسينات، ثم في أواسط الستينات، وفي المناطق المحتلقة بعد العام 1967، وليست "الحاجات الأمنية" التى تزعمها الدعاية الإسرائيلية. وهذه الأيديولوجية هي التي أملت أيضاً، الخطط الإسرائيلية الرسمية من أجل "تهويد الجليل". وهذا المصطلح الغريب يعني تشجيع اليهود على الاستيطان في الجليل بمنحهم تقديمات مالية. (وإنني لأتساءل ماذا ستكون ردة فعل يهود الولايات المتحدة فيما لو اقتُرحت خطة فى بلادهم، لجعل نيويورك مسيحية، أو حتى بروكلين وحدها). ولكن استرداد الأرض يعني ضمناً، أكثر من "التهويد" الإقليمي. فالصندوق القومي اليهودي، المدعوم بقوة من الوكالات الرسمية الإسرائيلية، (خصوصاً من الشرطة السرية)، ينفق، في كامل مساحة إسرائيل، مبالغ ضخمة من الأموال العامة من أجل "استرداد" أي أرض يرغب الأغيار في بيعها، ومنع أي محاولة يقوم بها يهودي، لبيع أرضه لغير يهودي، وذلك عن طريق دفع سعر أعلى له.

التوسع الإسرائيلي

إن الخطر الرئيسي الذي تشكله إسرائيل "كدولة يهودية"، على شعبها واليهود الآخرين وجيرانها، هو سعيها، بالدافع الأيديولوجي، الى التوسع الإقليمي، وسلسلة الحروب المحتومة، الناتجة عن هذا الهدف. فكلما أصبحت إسرائيل أكثر يهودية، أو كما يقال بالعبرية، كلما "عادت الى اليهودية" (وهي عملية جارية في إسرائيل، على الأقل، منذ العام 1967)، كلما كانت سياستها تسترشد بالاعتبارات الأيديولوجية اليهودية، أكثر مما تسترشد بالاعتبارات العقلانية. واستخدامي لمصطلح "عقلاني" هنا، ليس تقويماً خلقياً للسياسات الإسرائيلية، أو لحاجات إسرائيل المفترضة الى الدفاع والأمن – ولا حتى لحاجات إسرائيل المفترضة الى "البقاء". إننى بهذا الاستخدام، أشير هنا الى السياسات الامبريالية الإسرائيلية القائمة على مصالحها المفترضة.

فمهما كانت هذه السياسات سيئة خلقياً وعلى جهل سياسي مطبق، فإنني أعتبر تبني السياسات القائمة على "الأيديولوجية اليهودية" بصيغها المختلفة كافة، لا أسوأ منها فحسب، بل أسوأ بكثير. فالدفاعات الأيديولوجية للسياسات الإسرائيلية تقوم عادة، على المعتقدات الدينية اليهودية، أو ، كما في حالة اليهود العلمانيين، على "الحقوق التاريخية" لليهود، المستمدة من هذه المعتقدات نفسها، والتى تحتفظ بالطابع العقائدي للايمان الديني.

ولقد بدأ تحولي السياسي المبكّر من معجب ببن – غوريون الى شخص كرّس نفسه لمعارضته، بدأ بمسألة من هذا النوع. ففي العام 1956، ابتعلت كل الأسباب السياسية والعسكرية التي ساقها بن – غوريون ليعلل مبادأة إسرائيل في حرب السويس، والى حين إقدامه (وهو الملحد، المفاخر بتجاهله لوصايا الديانة اليهودية) على الإعلان فى الكنيست، في اليوم الثالث على بداية تلك الحرب، أن سببها الحقيقي هو "إعادة مملكة داوود وسليمان الى حدودها التوراتية". فعند هذه النقطة من خطابه، وقف تقريباً وبعفوية، أعضاء الكنيست كافة، وأنشدوا النشيد الوطني الإسرائيلي. وبحسب علمي، لم يحصل قط أن أعلن أي سياسي صهيوني رفضه لفكرة بن – غوريون القائلة بأن السياسات الإسرائيلي يجب أن تقوم (وضمن حدود الاعتبارات البراغماتية) على إعادة الحدود التوراتية كحدود للدولة اليهودية. وبالفعل، فإن التلحيل الدقيق للاستراتيجيات الإسرائيلية الكبرى، والمبادئ الفعلية للسياسة الخارجية، كما يُعبر عنها بالعبرية، يوضح بأن الأيديولوجية اليهودية هي التي تحدد، أكثر من أي عامل آخر، السياسات الإسرائيلية الفعلية. وأن تجاهل اليهودية، كما هي على حقيقتها، و"الأيديولوجية اليهودية" يجعل هذه السياسات سياسات لا يفهمها المراقبون الأجانب الذين لا يعرفون عادة، أي شيء عن اليهودية إلا التبريرات الفجّة.

دعوني أعطي توضيحاً حديثاً أكثر، عن الفارق الجوهري القائم بين التخطيط الإمبريالي الإسرائيلي من النوع المضخم للغاية، ولكن العلماني، وبين مبادئ "الأيديولوجية اليهودية". فالايديولوجية اليهودية توصي بأن الأرض التي كانت في قديم الزمان، إما محكومة من حاكم يهودي كائناً من كان، أو موعودة لليهود من الله إما في التوراة، أو بحسب تفسير حاخامي للتوراة والتلمود – وهو الأهم سياسياً في الواقع – فإن هذه الأرض يجب أن تعود لإسرائيل بما أنها دولة يهودية. ومما لا شك فيه أن الكثيؤرين من الحمائم اليهود يرون بأن فتحاً من هذا النوع يجب أن يؤجل الى وقت تكون فيه إسرائيل قد أصبحت أقوى مما هي عليه الآن، أو أنهم يتطلعون برجاء، الى حدوث "فتح سلمي"، أي أن يجري إقناع الحكام العرب أو الشعوب العربية، بالتنازل عن الأرض، موضوع البحث، لقاء منافع تنعم بها عليهم الدولة اليهودية حينذاك.

ويجري التداول اليوم، بعدد من الصيغ المتباينة لحدود أرض إسرائيل التوراتية، التي تفسرها مراجع حاخامية كحدود تعود فى الوضع المثالى، للدولة اليهودية. والصيغة الأبعد أثراً تشمل ضمن هذه الحدود: كامل سيناء وجزءاً من شمالي مصر وحتى ضواحي القاهرة، في الجنوب؛ كامل الأردن وجزءاً كبيراً من العربية السعودية، كامل الكويت وجزءاً من العراق جنوبي الفرات، في الشرق، كامل لبنان وسوريا مع جزء كبير جداً من تركيا (حتى بحيرة فان)، فى الشمال؛ وقبرص فى الغرب.

وتُنشر فى إسرائيل، غالباً بمعونات مالية من الدولة، أو بأشكال أخرى من الدعم، كمية كبيرة من الأبحاث والمناقشات الثقافية القائمة على أساس هذه الحدود، والمشمولة في الأطالس والكتب والمقالات، وفي أشكال شعبية أكثر، من أشكال الدعاية. ومن المؤكد أن الراحل (متير) كاهانا وأتباعه، بالإضافة الى هيئات نافذة أخرى مثل حركة غوش ايمونيم، لا يرغبون، بفتح إسرائيل لهذه الأراضي فحسب، بل يعتبرون مثل هذا الفتح عملاً موصى به من الله، وسوف يكون نجاحه مؤكداً بما أن الله سيساعد فيه.

وفي الواقع، هناك شخصيات دينية يهودية مهمة، تعتبر رفض إسرائيل الشروع في حرب مقدسة من هذا النوع، أو ما هو أسوأ من ذلك، إعادتها صحراء سيناء لمصر، خطيئة قومية، عاقبها الله عليها، عن حق. وكان أحد حاخامات غوش ايمونيم، والمدعو دوف ليور، حاخام مستوطنة كريات أربع اليهودية في الخليل، والأكثر نفوذاً من غيره، قد أعلن تكراراً، بأن إخفاق إسرائيل في غزو لبنان في السنوات 1982 – 1985، كان عقاباً إلهياً استحقته عن جدارة لخطيئتها في "إعطاء جزء من أرض إسرائيل" (أي سيناء) لمصر.

وعلى الرغم من أنني اخترت، والحق يقال، مثلاً متطرفاً على الحدود التوراتية لأرض إسرائيل، التي تعود لـ" الدولة اليهودية"، فإن هذه الحدود تتمتع بشعبية كبيرة في الدوائر القومية – الدينية. وهناك صيغ أقل تطرفاً، للحدود التوراتية، التي تُسمى أحياناً، "الحدود التاريخية" أيضاً. ولكن ينبغي التشديد على أن مفهوم الحدود التوراتية أو الحدود التاريخية كالحدود المعينة للأرض التي تعود لليهود بالحق، أمر لا تنكره في داخل إسرائيل، ولا في وسط جالية مؤيديها اليهود في الشتات، لأسباب مبدئية، إلا أقلية صغيرة تعارض مفهوم الدولة اليهودية. وفيما عدا ذلك، فإن الاعتراضات على تحقيق مثل هذه الحدود، عن طريق الحرب، اعتراضات براغماتية صرفة. ويستطيع المرء أن يدعي بأن إسرائيل اليوم، أضعف من أن تستطيع فتح كامل الأراضي التي "تعود" لليهود، أو أن يدعى بأن خسارة الأرواح اليهودية (وليس الأرواح العربية!)، التي تستلزمها حرب غازية بهذه الضخامة، أهم من فتح الأراضي، ولكن لا يستطيع المرء، بحسب معايير اليهدية، أن يدعي بأن "أرض إسرائيل" ضمن أي حدود كانت، لا "تعود" لليهود كافة. وكان أريئيل شارون في أيار / مايو عام 1993، قد اقترح رسمياً، في مؤتمر حركة الليكود، ضرورة أن تتبنى إسرائيل مفهوم الحدود التوراتية كسياستها الرسمية. وكانت هناك اعتراضات قليلة بعض الشيء، على هذا الاقتراح، إن في الليكود أم خارجه، وكانت كلها اعتراضات تقوم على أسباب براغماتية. كما أن أحداً لم يسأل شارون أين هي بالضبط، الحدود التوراتية التي يلح على وجوب أن تحققها إسرائيل. ودعونا نتذكر بأنه لم يكن هناك أي شك في وسط الذين سموا أنفسهم لينيين، بأن التاريخ يتبع المبادئ التي وضعها ماركس ولينين.

وليس فقط المعتقد بذاته مهما كن دوغمائياً، هو الذي يخلق الذهنية الاستبدادية، ولكن أيضاً رفض التشكيك به في أي وقت من الأوقات، من خلال الحؤول دون مناقشته في العلن. لذلك يمكن القول بأنه يوجد عرق استبدادي قوي في المجتمع اليهودي – الإسرائيلي، وفي شخصية يهود الشتات، الذين يعيشون "حياة يهودية"، والمنظمين في تنظيمات يهودية صرفة.

ومع ذلك، تطورت منذ قيام الدولة أيضاً، استراتيجية إسرائيلية كبرى لا تقوم على مبادئ "الأيديولوجية اليهودية"، بل على اعتبارات استراتيجية أو امبريالية صرفة – ولقد قدم الجنرال (احتياط) شلومو غازيت (2)، الذي كان قائداً سابقاً للاستخبارات العسكرية، وصفاً رسمياً وشفافاً للمبادئ التي تحكم مثل هذه الاستراتيجية.

فبحسب رأي غازيت

"لم تتغير مهمة إسرائيل الرئيسية قط [منذ أن هوى الاتحاد السوفييتي] وهي باقية على أهميتها الحاسمة. فموقع إسرائيل الجغرافي في وسط الشرق الأوسط العربي – المسلم يجعل قَدَر إسرائيل أن تكون الحارس الوفي للاستقرار في كامل البلدان المحيطة بها. إن [دورها] هو حماية الأنظمة القائمة: لمنع عمليات التحول الراديكالية أو وقفها، وعرقلة اتساع الحماسة الدينية الأصولية. ولهذه الغاية ستمنع إسرائيل حصول

تغييرات ما وراء حدود إسرائيل، [التي] ستعتبرها تغييرات لا تُطاق، والى حد إحساسها بأنها مجبرة على استخدام كل قوتها العسكرية من أجل منعها أو اجتثاثها".

بكلام آخر، تهدف إسرائيل الى فرض الهيمنة على الدول الشرق أوسطية الأخرى. ولا حاجة للقول، بحسب غازيت، بأن لإسرائيل اهتماماً خيّراً باستقرار أنظمة الحكم العربية. فإسرائيل، برأي غازيت، بحمايتها للأنظمة الحاكمة في الشرق الأوسط، تؤدي خدمة حيوية "للدول المتقدمة صناعياً، والمهتمة جميعها، اهتماماً شديداً، بضمان الاستقرار في الشرق الأوسط". وهو يقول مجادلاً، بأن أنظمة الحكم القائمة في المنطقة كان من شأنها أن تنهار منذ وقت طويل لولا وجود إسرائيل، وأن هذه الأنظمة باقية في الوجود فقط بسبب التهديدات الإسرائيلية. وقد تكون وجهة النظر هذه وجهة نظر منافقة، ولكن على المرء في الوقت نفسه، أن يتذكر في مضامين من هذا النوع، حكمة لاروش – فوكو القائلة بأن "النفاق هو الضريبة التى يدفعها الخبث للفضيلة". وإن استرداد الأرض ما هو إلا محاولة للتملص من دفع أي ضريبة من هذا النوع.

ولا حاجة للقول بأنني أعارض أيضاً، أصلاً وفرعاً، السياسات الإسرائيلية غير – الايديولوجية كما شرحها غازيت بهذه الدرجة من الصحة والشفافية. وإنني أقرّ في الوقت نفسه، بأن أخطار سياسات بن – غوريون أو شارون، بحوافزها "الأيديولوجية اليهودية"، هى أسوأ بكثير من السياسات الامبريالية مهما كانت اجرامية. كما أن نتائج السياسات التي تنتهجها أنظمة حكم أخرى مدفوعة بحوافز ايديولوجية تشير الى الاتجاه نفسه. ولأن عنصراً مهماً من العناصر المؤلفة للسياسة الإسرائيلية يقوم على أساس "الأيديولوجية اليهودية"، فإن تحليلها يصبح أمراً لا بد منه سياسياً. كما أن هذه الأيديولوجية تقوم بدورها، على مواقف اليهودية التاريخية تجاه الأغيار، وهذه المواقف هي أحد المواضيع الرئيسية لهذا الكتاب، فهي تؤثر بالضرورة، على العديد من اليهود، عن وعى أو بدون وعى. ومهمتنا هنا أن نبحث فى اليهودية التاريخية بالمصطلحات الواقعية.

إن تأثير الايديولوجية اليهودية على العديد من اليهود سيكون أقوى ما دامت محجوبة أكثر عن المناقشة العامة. والمأمول هو أن يقود نقاش من هذا النوع الناس الى اتخاذ موقف من الشوفينية اليهودية ومن الازدراء الذي يبديه عدد كبير من اليهود تجاه الأغيار (الذي سنوثقه أدناه)، يكون مماثلاً للموقف المتخذ عادة، من معادة السامية والأشكال الأخرى كافة لكراهية الغير والشوفينية والعنصرية. كما يُفترض، عن حق، بأن الفضح الكامل وحده، ليس لمعاداة السامية فحسب، بل لجذورها التاريخية أيضاً، يمكنه أن يكون الأساس للقتال ضدها، كذلك الأمر، يكون الأساس للنضال ضد هذه الظواهر. ويصح ذلك بصفة خاصة، اليوم، عندما نجد أن التأثير السياسي للشوفينية اليهودية والتعصب الديني، وعلى عكس الوضع الذي كان سائداً منذ خمسين عاماً أو ستين، هو تأثير أكبر بكثير من تأثير معاداة السامية. ولكن هناك اعتبار آخر مهم أيضاً، فأنا أؤمن بقوة، بأنه لا يمكن محاربة الشوفينية اليهودية ومعاداة السامية إلا في وقت واحد.

اليوتوبيا المغلقة؟

إن الخطر الفعلي للسياسات الإسرائيلية القائمة على الأيديولوجية اليهودية سيبقى أكبر من خطر السياسات القائمة على الاعتبارات الاستراتيجية الصرفة، حتى يجري تبني مثل هذه المواقف تبنياً واسع النطاق. والفارق بين هذين النوعين من السياسات، فارق عبّر عنه تعبيراً جيداً هيو تريفور – روبر فى بحث له بعنوان "السير توماس مور واليوتوبيا" (3)، وقد أطلق عليهما صفتي الأفلاطونية والميكانيكية.

لقد اعتذر ميكافيللي، على الأقل، عن الطرق التي اعتقد بأنها ضرورية في السياسة. ولقد أسف على ضرورة العنف والاحتيال، ولم يطلق عليهما أي اسم آخر. ولكن أفلاطون ومور برراهما، شرط استخدامهما للمحافظة على جمهوريتيهما الفاضلتين.

وعلى نحو مماثل، فإن المؤمنين الحقيقيين بهذه اليوتوبيا المسماة "الدولة اليهودية"، والتي ستجتهد لإحراز الحدود التوراتية، هم أكثر خطراً من الاستراتيجيين الكبار، من أمثال غازيت، لأن سياساتهم تُبرّر، إم عن طريق استخدام الدين أو ما هو أسوأ، أو عن طريق استخدام المبادئ الدينية المعلمنة التي تحتفظ بشرعية مطلقة. فبينما يرى غازيت، على الأقل، حاجة للمجادلة بأن التحكم الإسرائيلي يفيد أنظمة الحكم العربي، لم يدّع بن – غوريون بأن إعادة إنشاء مملكة داوود وسليمان ستفيد أحداً غير الدولة اليهودية.

وينبغي ألا يبدو الأمر غريباً إذا استخدمنا المفاهيم الأفلاطونية لتحليل السياسات الإسرائيلية القائمة على الأيديولوجية اليهودية. فقد تنبّه بضعة علماء، وكان أهمهم موشيه هداس، الذي ادعى بأن أسس "اليهودية الكلاسيكية"، أي اليهودية كما أرساها حكماء التلمود، أسس قائمة على التأثيرات الأفلاطونية، وخصوصاً على صورة اسبارطة كما تظهر عن أفلاطون (4). وبحسب هداس، فإن إحدى السمات الحاسمة للنظام السياسي الأفلاطوني، والتي تبنتها اليهودية في وقت مبكر جداً يعود الى عهد المكابيين (142 – 63 ق.م.)، كانت "ضرورة أن تكون كل مرحلة من مراحل السلوك الإنساني خاضعة للتصديقات الدينية التي، في الواقع، ينبغي للحاكم أن يديرها إدارة ماهرة". ولا يمكن أن يكون هناك تعريف لـ "اليهودية الكلاسيكية" وللطرق الماهرة التي أدارها بها الحاخامات، أفضل من هذا التعريف الأفلاطوني. وعلى وجه الخصوص، فقد ادعى هداس بأن اليهودية تبنت ما لخصه أفلاطون بنفسه كـ "أهداف لبرنامجه"، في الفقرة التالية المعروفة:

الأمر الأساسي هو أن أي شخص، رجلاً كان أم امرأة، يجب ألا يكون أبداً، من دون ضابط معين فوقه، وأن أي شخص كان يجب ألا يكتسب العادة الذهنية باتخاذ أي خطوة، بالجد أو بالهزل، على مسؤوليته الفردية. فعليه أن يعيش دائماً، في السلم كما في الحرب، بعينيه نصب ضابطه الأعلى. .. أي باختصار، ينبغي لنا أن ندرّب الذهن حتى على ألا يُفكر بالعمل كفرد أو ألا يعرف كيف يعمل كفرد. (Law 942 ab)

وإذا استبدلنا كلمة حاخام بكلمة ضابط سيكون لدينا صورة كاملة لليهودية الكلاسيكية. وهذه اليهودية الكلاسيكية ما زالت تؤثر تأثيراً عميقاً في المجتمع اليهودي – الإسرائيلي، وتعيّن الى حد بعيد، السياسات الإسرائيلية.

وهذه الفقرة المقتبسة أعلاه، هى الفقرة التى اخترها كارل بوبر فى مؤلفه The Open Society and Its Enemies، باعتبارها تصف ماهية "المجتمع المغلق". فاليهودية التاريخية وخليفتاها، الارثوذوكسية والصهيونية، هم الأعداء الألداء لمفهوم المجتمع المفتوح كما هو مطبق في إسرائيل. فالدولة اليهودية، سواء أكانت قائمة على ايديولوجيتها اليهودية الحالية، أم أصبحت حتى أكثر يهودية فى طابعها مما هى عليه الآن، مستندة الى مبادئ الارثوذوكسية اليهودية، لا يمكنها أبداً، أن تضم مجتمعاً مفتوحاً. وهناك خياران اثنان أمام المجتمع اليهودي – الإسرائيلى، فهو يستطيع أن يصبح غيتو مولعاً بالقتال ومغلقاً تماماً، أي اسبارطة يهودية، مدعوماً بكدح عبيد الأرض العرب، يحافظ على وجوده من خلال نفوذه على المؤسسة السياسية الأمريكية، وتهديداته باستخدام قوته النووية، أو يمكنه المحاولة ليصبح مجتمعاً مفتوحاً. ويعتمد الخيار الثاني على الفحص الأمين لماضيه اليهودي، وعلى الاعتراف بوجود الشوفينية اليهودية والاقتصادية اليهودية، وعلى الفحص الأمين لمواقف اليهودية من غير اليهود.

الحواشي

1) بالعبرية، Walter Laquer, "History Of Zionism", Schoken Publishers, Tel Aviv, 1974

2) أنظر يديعون أحرونوت، 27 نيسان، 1992.

3) في Hugh Trevor – Roper "Renaissance Essays", Fontana Press, London, 1985

4) أنظر Moses Hadas, "Hellenistic Culture, Fusion and Diffusion" Columbia University Press, New York, 1959، وخصوصاً الفصل السابع والفصل العشرين.

الفصل الثاني

مقدمة

إن الصعوبة الأولى في الكتابة حول هذا الموضوع هي أن مصطلح "اليهودي" كان يستخدم خلال السنوات الخمسين الأخيرة بمعنيين مختلفين الى حد ما. وحتى نفهم الأمر، دعونا نتصور أنفسنا في العام 1780. فالمعنى المقبول عالمياً آنذاك، لمصطلح "اليهودي"، كان متطابقاً اساساً، مع ما فهمه اليهود بأنه المعنى الذي يشكل هويتهم الخاصة. وهذه الهوية كانت دينية بالدرجة الأولى، ولكن قواعد السلوك الدينية حكمت تفاصيل السلوك اليومي في نواحي الحياة كافة، الاجتماعية والخاصة، فيما بين اليهود أنفسهم، وفي علاقاتهم مع غير اليهود أيضاً. وكان صحيحاً حرفياً آنذاك، بأن اليهودي لم يكن باستطاعته حتى أن يشرب كوباً من الماء في بيت شخص غير يهودي. وكانت القوانين الأساسية نفسها، الخاصة بالسلوك تجاه الأغيار، سارية المفعول، على حد سواء، من اليمن والى نيويورك.

ومهما يكن المصطلح الذي يمكن أن يصف يهود عام 1780 – ولا أريد أن أدخل في جدل الغيبيات حول مصطلحات مثل "الأمة" و "الشعب" (1) – من الواضح بأن الطوائف اليهودية كافة، كانت آنذاك، منفصلة عن المجتمعات غير اليهودية التى كانت هذه الطوائف تعيش في وسطها.

ولكن كل هذا تغير بواسطة عمليتين متوازيتين – بدأتا في هولندا وانكلترا، واستمرتا في فرنسا الورية وفي البلدان التي حذت حذو الثورة الفرنسية، ثم في الملكيات الحديثة في القرن التاسع عشر: فقد أحرز اليهود مستوى مهماً من الحقوق الفردية (ومساواة قانونية في بعض الحالات)، وتدمرت السلطة القانونية التي كانت للطائفة اليهودية على أفرادها. وينبغي لنا أن نلحظ بأن التطورين كانا يتحركان في وقت واحد،

وأن أهمية التطور الثاني كانت حتى أكبر من أهمية التطور الأول، ولو أن سعة المعرفة بالتطور الثاني كانت أقل من سعة المعرفة بالتطور الأول.

لقد كان للطوائف اليهودية منذ أيام الامبراطورية الرومانية البائدة، سلطة قانونية كبيرة على أعضائها. ولم تكن هذه السلطات فقط السلطات التي تنشأ من خلال التعبئة الطوعية للضغط الاجتماعي (كمثل رفض التعاطي بأي شكل كان، مع يهودي أنزل به الحرمان الكنسي، أو حتى دفن جثته)، بل سلطة الإكراه العارية أيضاً: سلطة الجلد والسجن والطرد – وكانت كلها عقوبات تستطيع المحاكم الحاخامية، التي تنظر في أنواع الجرائم كافة، إنزالها بالفرد اليهودي، وبصورة شرعية تماماً. وكان بالإمكان في العديد من البلدان – واسبانيا وبولندا مثالان بارزان – انزال حتى عقوبة الإعدام، وقد أنزلت بالفعل، وأحياناً من خلال استخدام طرق وحشية بصفة خاصة، مثل الجلد حتى الموت.

ولم يكن كل هذا مسموحاً به فحسب، بل كانت تشجع عليه صراحة، وعلى حد سواء، السلطات الرسمية في البلدان المسيحية والاسلامية، التي كان لها في بعض الحالات، مصلحة مالية مباشرة أكثر، بالإضافة الى اهتمامها عموماً، بالمحافظة على القانون والنظام. وتوجد في المحفوظات الاسبانية، التي تعود الى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، سجلات لأوامر تفصيلية عديدة صادرة عن ملوك كاستيل واراغون الكاثوليك الأكثر تقوى، يأمرون فيها موظفيهم الذين لا يقلّون عنهم تقوى، بالتعاون مع الحاخامات لإجبار اليهود على المحافظة على فرائض يوم السبت. لماذا؟ لأنه في أي وقت كانت المحكمةالحاخامية تفرض فيه غرامة على يهودي بسبب انتهاكه ليوم السبت، كان الحاخامات يسلمون الملك تسعة أعشار الغرامة – وكان ذلك الترتيب، ترتيباً فاعلاً ومربحاً جداً. وعلى نحو مماثل، يستطيع المرء أن يستشهد من مؤلف Responsa المكتوب قبل العام 1832، والذي وضعه الحاخام الشهير موشيه سوفير، حاخام برسبورغ، (براتيسلافا اليوم)، في ما كان آنذاك، المملكة المجرية ذات الاستقلال الذاتي، في الامبراطورية النمساوية، والذي خاطب به فيينا، في النمسا، بذاتها، حيث كان اليهود قد منحوا بعض الحقوق الفردية الجديرة بالاعتبار (2). فهو يتفجع على حقيقة أن اليهود فى فيينا أصبحوا متراخين فى مسائل المحافظة على الفرائض الدينية، بالنظر الى خسارة جماعة المؤمنين اليهود هناك، لسلطاتها التي تخولها معاقبة المجرمين، ويضيف قائلاً: "عندما يخبرونني هنا في برسبورغ، بأن يهودياً تجرأ وفتح حانوته خلال العطلات الصغرى، فإنني أرسل على الفور، شرطياً لسجنه".

كانت هذه أهم الحقائق الاجتماعية في الوجود اليهودي قبل قدوم الدولة الحديثة: فالمحافظة على قوانين الديانة اليهودية، وكذلك غرسها في الأذهان، بواسطة التعليم، كانت تُفرض فرضاً على اليهود بالإكراه الجسدي، الذي لم يكن أحد ليستطيع الإفلات منه إلا بالتحول واعتناق ديانة الأكثرية، وهو أمر يبلغ مبلغ الانسلاخ الاجتماعي الكامل في تلك الظروف، ولهذا السبب كان الإقدام عليه متعذراً جداً إلا خلال الأزمات الدينية (3).

ولكن ما أن قامت الدولة الحديثة، حتى فقدت الطوائف اليهودية سلطات معاقبة الفرد اليهودي أو تهديده. وهكذا، انقصفت روابط أحد أكثر المجتمعات المغلقة انغلاقاً، وأحد أكثر المجتمعات استبدادية في التاريخ البشري ككل. وقد جاءت عملية التحرر هذه معظمها من الخارج. وعلى الرغم من أن بعض اليهود ساعدوا فيها، إلا أنهم كانوا قلة في البداية. وكان لهذا الشكل من التحرر عواقب خطيرة جداً للمستقبل. فمثلما كان الأمر فى حالة ألمانيا (بحسب تحليل أ. ج. تايلور البارع)، حيث كان من السهل محالفة قضية الرجعية السياسية مع حب الوطن، لأن جيوش الثورة الفرنسية وجيوش نابليون، هي، في الواقع، التي أدخلت حقوق الفرد والمساواة أمام القانون الى ألمانيا، فكان

المرء يستطيع أن يوصم الحرية كقيمة غير – ألمانية. كذلك الأمر، فقد أصبح من السهل جداً في وسط اليهود، وخصوصاً في إسرائيل، شن هجوم فاعل جداً ضد الأفكار والمثل الإنسانية وحكم القانون (حتى لا نقول الديمقراطية)، كشيء "غير – يهودي"، أو "معاد لليهود" – وهي كذلك عن حق، بمعنى من المعاني التاريخية – وكمبادئ يمكن أن تستخدم لما فيه "المصلحة اليهودية"، ولكنها تفقد شرعيتها إذا ما استُخدمت ضد "المصلحة اليهودية"، كمثل أن يستجير العرب بهذه المبادئ نفسها. وقد أدى ذلك أيضاً – ومرة أخرى، كما حصل في ألمانيا وغيرها من أمم أوروبا الوسطى – الى كتابة تاريخ يهودي مضلل وعاطفي، مُفرط في الرومنطيقية، طُمست فيه الحقائق غير الملائمة كافة.

لذلك لن يجد المرء في كتابات حنه ارندت الغزيرة، أن كان حول الاستبدادية أو حول اليهود، أو كليهما (4)، أي تلميح، مهما كان صغيراً، الى ما كانت عليه حقيقة المجتمع اليهودي في ألمانيا في القرن الثامن عشر: إحراق الكتب واضطهاد الكتاب والنزاعات حول القوة السحرية للتعاويذ، وحظر التعليم غير اليهودي في أقصى ابتدائيته، مثل تدريس اللغة الألمانية الصحيحة، وبالطبع، الألمانية المكتوبة بالأحرف اللاتينية (5).

كما أن المرء لن يجد في التواريخ اليهودية العديدة، المكتوبة باللغة الإنكليزية، الحقائق حول موقف الصوفية اليهودية (الرائجة جداً فى الوقت الحاضر، فى نواح معينة) من غير اليهود: فهي تعتبرهم، حرفياً، قوائم للشيطان، وتعتبر أن الأفراد القلائل من بينهم، غير الشيطانيين (أي هؤلاء الذين اعتنقوا اليهودية) هم في الحقيقة، أرواح يهودية ضلّت سبيلها عندما انتهك الشيطان المقام السماوي للسيدة المقدسة (شخينة أو مترونيت، أحد العناصر الأنثوية للإله الرأس، شقيقة وزوجة الإله الذكر الأصغر، بحسب الكابلاة). ولقد أعارت المراجع العظيمة الشأن، مثل غرشوم شولم، حُججها لنظام من الأضاليل فى المجالات الحساسة كافة؛ وأكثر هذه المراجع شعبية هى أشدّها خداعاً وتضليلاً.

أما النتيجة الاجتماعية لعملية التحرر هذه فكانت أن اليهودي، وللمرة الأولى منذ عام 200م (6)، استطاع أن يكون حراً ليفعل ما يشاء، ضمن حدود القانون المدنى لبلاده، ومن دون أن يضطر الى دفع الثمن لقاء هذه الحرية، بتحوله واعتناقه ديانة أخرى. لقد مُنح اليهود حرية طلب العلم وقراءة الكتب باللغات الحديثة، وحرية قراءة الكتب وكتابتها بالعبرية من دون موافقة الحاخامات (كما كانت الحال في السابق بالنسبة الى أي كتاب بالعبرية أو اليديش)، وحرية تناول الطعام غير المُعد بحسب طقوس الشريعة اليهودية، وحرية تجاهل محرمات سخيفة عديدة تنظم الحياة الجنسية، وحتى حرية التفكير – لأن الأفكار المحرمة هي أكثر الخطايا خطورة – كل هذه الحريات منحتها ليهود أوروبا (ويهود بلدان أخرى فيما بعد) أنظمة حكم أوروبية حديثة، أو حتى مطلقة، على الرغم من أن أنظمة الحكم المطلقة كانت في الوقت نفسه أنظمة قمعية ومعادية للسامية. فقد كان نيكولاس الأول، قيصر روسيا، معادياً شهيراً للسامية، وقد أصدر عدداً من القوانين ضد اليهود في دولته. ولكنه عزز أيضاً، القوى المحافظة على القانون والنظام في روسيا – وليس فقط الشرطة السرية بل قوات الشرطة النظامية والجندرمة أيضاً – فكانت النتيجة أنه بات من الصعب قتل اليهود بأوامر من حاخاماتهم، بينما كان من السهل جداً فعل ذلك في بولندا قبل العام 1795. ولكن التاريخ اليهودي الرسمي يدين هذا القيصر للأمرين معاً. ففي أواخر عقد 1830، على سبيل المثال، أمر الحاخام الأقدس (تساديك) في بلدة يهودية صغيرة في أوكرانيا، بقتل مارق عن الدين، بإلقائه في المياه الغالية في حمامات المدينة، ولاحظت مصادر يهودية معاصرة بدهشة ورعب، بأن الرشوة "لم تعد مؤثرة"، وبأن العقاب الشديد لم يطل الجناة الفعليين فحسب، بل الرجل الأقدس أيضاً. فنظام حكم مترنيخ في النمسا، قبل العام 1848، كان نظاماً مشهوراً برجعيته، وكان موقفه من اليهود موقفاً غير ودّي، ولكنه لم يكن يسمح

بتسميم الناس، ولا حتى بتسميم الحاخامات اليهود الليبراليين. وخلال العام 1848، عندما وهنت قوة النظام مؤقتاً، كان أول ما فعله قادة الطائفة اليهودية في مدينة ليمبرغ الغاليسية (لفوف اليوم) بحريتهم المستردة الجديدة، تسميم حاخام المدينة الليبرالية، الذي كانت الجماعة اليهودية غير الأرثوذوكسية، الصغيرة في المدينة، قد جاءت به من ألمانيا. وبالمناسبة فقد كانت هرطقته الكبرى تأييده لمراسم بلوغ سن الالتزام بالفرائض الدينية، (Bar Mitzvah)، التي كانت قد استُحدثت قبل وقت قصير، وممارسته الفعلية لها.

التحرير من الخارج

إذن، اكتسب مصطلح "اليهودي" خلال المائة والخمسين عاماً الأخيرة، معنى مزدوجاً، ما أدى الى تشويش شديد لدى بعض الناس من ذوي النوايا الحسنة، في البلدان الناطقة باللغة الإنكليزية، والذين يتصورون بأن اليهود الذين يلتقونهم في المناسبات الاجتماعية هم "ممثلون" لليهود "عموماً". وفي بلدان أوروبا الشرقية كما في العالم العربي، تحرر اليهود من طغيان ديانتهم ومجتمعاتهم الخاصة، بواسطة قوى خارجية، في وقت متأخر جداً، وفي ظروف كانت غير مؤاتية لتحقيق تغيير اجتماعي داخلي. وفى معظم الحالات، وفى إسرائيل بصفة خاصة، حوفظ على المفهوم القديم للمجتمع، وعلى الايديولوجية نفسها – خصوصاً ما هو موجه منها نحو غير اليهود – وعلى المفهوم نفسه الزائف تماماً للتاريخ. وهذا ما ينطبق حتى على بعض من هؤلاء اليهود الذين انضموا الى الحركات التقدمية أو اليسارية. ويمكن أن يزودنا فحص للأحزاب الراديكالية والاشتراكية الشيوعية بأمثلة عديدة على شوفينيين وعنصريين يهود متنكرين، انضموا الى هذه الأحزاب فقط لأسباب تتعلق بـ "المصلحة اليهودية"، وقد حبّذ الموجودون منهم فى إسرائيل، التمييز "ضد الأغيار" [غير اليهود]. ولا يحتاج المرء سوى أن يراجع ويفحص كيف استطاع العديد من اليهود الاشتراكيين، الكتابة عن الكيبوتس من دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الإشارة الى كونه مؤسسة عنصرية، تستبعد استبعاداً كاملاً مواطني إسرائيل من غير اليهود، ليرى بأن الظاهرة التي نلمح اليها ليست غير عادية على الإطلاق (7).

وإذا تجنبنا التصنيفات القائمة على الجهل والنفاق، نجد أن كلمة "يهود" والكلمات المشتقة من مصدرها، تصف مجموعتين اجتماعيتين مختلفتين، وحتى متناقضتين، ونجد أن خط التواصل بينهما يسير بسرعة الى الاختفاء بسبب السياسة الإسرائيلية. فمن جهة، هناك المعنى الاسبتدادي التقليدي الذي سبق أن بحثناه؛ ومن جهة ثانية، هناك اليهود بالأصل والنسب الذين استلهموا الأفكار العقدة التي أطلق عليها كارل بوبر اسم "المجتمع المفتوح". (وهناك بعض الذين لم يستلهموا هذه الأفكار، وخصوصاً في الولايات المتحدة، ولكنهم يحاولون التظاهر بقبولها).

ومن المهم أن نلحظ بأن الخصائص كافة التي يفترض أن تكون خصائص يهودية – وأعني بها تلك الصفات التي ينسبها المثقفون المزعومون الإفظاظ في الغرب، الى اليهود – هي خصائص حديثة لم تكن معروفة قط، خلال التاريخ اليهودي بمعظمه، وظهرت فقط عندما بدأت الطائفة اليهودية الاستبدادية تفقد سلطتها. فلنأخذ مثلاً روح التفكه اليهودية الشهيرة. فالتفكه ليس فقط نادراً جداً في الأدب العبراني ما قبل القرن التاسع عشر (ونجده فقط خلال بعض الفترات، في بلدان كانت فيها الطبقة اليهودية العليا حرة نسبياً، من نير الحاخامات، مثل إيطاليا بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر، أو إسبانيا المسلمة)، بل إن التفكه والنكات أمور يمنعها الدين اليهودي منعاً باتاً – باستثناء النكات الموجهة ضد الديانات الأخرى، وهذا أمر له دلالته. فهجاء الحاخامات

وقيادات الطائفة لم يكن يوماً موضوع استلهام لليهودية، حتى على نطاق ضيق، كما كان الأمر في المسيحية اللاتينية.

ولم يكن هناك مسرح كوميدي يهودي، بالضبط، كما لم يكن هناك مسرح كوميدي في اسبارطة، ولسبب مماثل (8).

ولنأخذ مثلاً، محبة العلم؛ فإذا استثنينا التعليم الديني الصرف، والذي كان بحد ذاته، في حالة من الانحطاط والانحلال، نجد أن يهود أوروبا (ويهود البلدان العربية أيضاً، في حدود أقل، نوعاً ما) قبل حوالي العام 1780، كان يسيطر عليهم شعور بالازدراء والكراهية الفائقة، لكل أنواع العلم (باستثناء دراسة التلمود والصوفية اليهودية). فأقسام كبيرة من التوراة والشعر العبراني غير الديني كافة ومعظم المؤلفات حول الفلسفة اليهودية، جميعها لم تكن تُقرأ، وكانت أسماؤها غالباً ما تستدرج اللعن. كذلك الأمر، فقد كانت دراسة أي لغة من اللغات ممنوعة منعاً باتاً، مثلما كانت دراسة الرياضيات والعلوم. أما الجغرافيا (9) والتاريخ – وحتى التاريخ اليهودي – فإنهما لم يكونا معروفين قط. وكان حسّ النقد، الذي يُفترض أنه يمثل ميزة بارزة من ميزات اليهود، كان غائباً كلياً، ولم يكن هناك ما هو ممنوع ومثير للفزع، وبالتالي مضطهد، مثلما كان الإبداع في أقصى تواضعه، والنقد في أقصى براءته.

لقد كان عالمهم عالماً غارقاً في الاعتقاد المرذول بالخرافات، وفي التعصب والجهل في أقصى صورة؛ عالماً استطاعت فيه المقدمة الخاصة بأول عمل جغرافي باللغة العبرية (نشر في روسيا، عام 1803)، أن تشكو من أن عدداً كبيراً جداً من الحاخامات كانوا ينكرون وجود القارة الأميركية، ويقولون بأن وجودها "مستحيل". ولم يكن يوجد ما هو مشترك بين ذلك العالم وبين ما يعتبرونه في الغرب، في أغلب الأحيان، بأنه "يميّز" اليهود، إلا الخطأ فى التسمية.

ومع ذلك، فإن عدداً كبيراً من اليهود في عالمنا اليوم، يحنّون الى ذلك العالم، الى فردوسهم المفقود، المجتمع المغلق المريح، الذي لم يتحرروا منه بقدر ما طردوا منه. لقد كان قسم كبير من الحركة الصهيونية يرغب دائماً بإعادة هذا المجتمع الى سابق عهده – وهذا القسم هو الذي امتلك النفوذ. كما أن العديد من الدوافع الكامنة وراء السياسة الإسرائيلية، التي تحيّر "أصدقاء" إسرائيل المساكين والمرتبكين في الغرب، يمكن أن تصبح قابلة للتفسير تفسيراً كاملاً، مجرد ما أن يُنظر اليها كردّة، ردة فعل بالمعنى السياسي، وهو المعنى الذي حملته هذه الكلمة خلال المائتي سنة الأخيرة: عودة قسرية وتجديدية في نواح عديدة، وبالتالي وهمية، الى المجتمع المغلق للماضي اليهودي.

عقبات دون الفهم

يمكننا تاريخياً، أن نبين بأن المجتمع المغلق، لا شك أنه مجتمع غير مهتم في وصف لذاته، لأن أي وصف هو في جزء منه، شكل من أشكال التحليل النقدي، الذي قد يشجع بالتالي، أفكاراً نقدية "ممنوعة". فكلما أصبح المجتمع مفتوحاً كلما اهتم بالتفكير ملياً، بالوصف اولاً، ثم بالنقد، في عمله الحاضر وماضيه أيضاً. ولكن ماذا يحصل عندما ترغب في فئة من المثقفين، في جرّ مجتمع أصبح منفتحاً الى حد كبير، الى حالة المغلقة والاستبدادية السابقة؟ إن الذي يحصل عندئذ هو أن الوسائل نفسها التى تحقق بها التقدم السابق، أي الفلسفة والعلوم والتاريخ وعلم الاجتماع بصفة خاصة، تصبح الأدوات الأكثر فعالية "في أيدي المثقفين لارتكاب الخيانة". وإذ يُساء

استخدامها من أجل أن تخدم كوسائل للتضليل، فإن قيمتها المعنوية تتدهور خلال العملية.

ولم يكن لليهودية الكلاسيكية (10) سوى اهتمام ضئيل بوصف ذاتها وتفسيرها، لأفراد طائفتها، سواء أكانوا من المتعلمين (في دراسات التلمود) أم غير المتعلمين (11). وهناك دلالة على حقيقة أن كتابة التاريخ اليهودي، حتى بالأسلوب التسجيلي الجاف، قد توقفت توقفاً تاماً منذ أيام جوزفوس فلافيوس (نهاية القرن الأول) وحتى عصر النهضة، عندما انتعشت هذه الكتابة لوقت قصير في إيطاليا وغيرها من البلدان، حيث كان اليهود خاضعين لتأثير إيطالي قوي. (12)

فالحاخامات، وانسجاماً مع صفاتهم، كانوا يخشون التاريخ اليهودي أكثر مما يخشون التاريخ العام، وقد كان أول كتاب حديث فى التاريخ يصدر بالعبرية (فى القرن السادس عشر) كتاباً بعنوان "تاريخ ملوك فرنسا، والملوك العثمانيين". وتلا هذا الكتاب عدد من كتب التاريخ التي تتناول الاضطهاد الذي يتعرض له اليهود فحسب.

أما الكتاب الأول عن التاريخ اليهودي بالذات (13)، (ويتناول الأزمنة القديمة)، فقد منعته السلطات الحاخامية العليا فوراً، وطمسته، ولم يظهر مجدداً قبل القرن التاسع عشر. أكثر من ذلك، فقد أصدرت السلطات الحاخامية فى أوروبا الشرقية، قراراً يقضى بمنع الدراسات غير التلمودية كافة، حتى وإن كانت لا تحتوي على شيء محدد يستحق اللعنة لأنها تعد على الوقت الذي ينبغي أن يُصرف إما على دراسة التلمود أو على جمع المال – الذي يجب أن يُستخدم بدوره، لتمويل علماء التلمود. ولم يُترك إلا منفذ واحد، ألا وهو الوقت الذي ينبغي حتى لليهودي التقي أن يمضيه بالضرورة في المرحاض. لكن الدراسات المقدسة كانت ممنوعة في هذا المكان غير النظيف، وكان مسموحاً فقط بقراءة التاريخ فيه، شرط أن يكون المؤلف مكتوباً بالعبرية، وأن يكون علمانياً تماماً، والمقصود بذلك أن المؤلف يجب أن يكون مخصصاً حصراً، للموضوعات غير اليهودية. (ويستطيع المرء أن يتصور تلك القلّة من اليهود في ذلك الوقت، الذين نمى لديهم، وبإغواء من إبليس بلا ريب، اهتمام بتاريخ ملوك فرنسا، وهم يشكون دائماً لجيرانهم معاناتهم من إمساك المعدة. . .) ونتيجة لذلك، فقد كانت الأكثرية الساحقة من اليهود، قبل مائتي سنة، تعيش في ظلمة كلية، ليس فقط حول وجود أميريكا، بل حول التاريخ اليهودي ودولة اليهود المعاصرة أيضاً؛ وكان هؤلاء قانعين تماماً بالبقاء على هذه الحال.

التاريخ الاستبدادي

وفي أي حال، فقد كان هناك مجال واحد لم يكن مسموحاً لهم فيه بالبقاء على قنعتهم بما لديهم – وكان هذا المجال الهجمات المسيحية على تلك النصوص المذكورة في التلمود والأدب التلمودي والمعادية للمسيحية خصوصاً، أو للأغيار عموماً. ومن المهم أن نلاحظ بأن هذا التحدي تطور متأخراً نسبياً في تاريخ العلاقات المسيحية – اليهودية – فقط منذ القرن الثالث عشر وما بعده. (فقبل ذلك، كانت السلطات المسيحية تهاجم اليهودية مستخدمة إما حججاً من الإنجيل أو حججاً عامة، ولكنها بدت على جهل تام بالنسبة الى محتويات التلمود). ويبدو أن الحملة المسيحية ضد التلمود كان سببها تحول يهود ضليعين في التلمود، الى الديانة المسيحية، وقد اجتذب العديدين منهم تطور الفلسفة المسيحية، بسمتها الأرسطية (وبالتالى الكونية) البارزة (14).

وينبغي الإقرار منذ البداية، بأن التلمود والأدب التلمودي – وبمعزل عن سمتهما الملازمة المعادية عموماً للأغيار، والتي سنبحثها بتفصيل أوسع في الفصل الخامس – ينبغي الإقرار بأنهما يتضمنان أقوالاً منفّرة، وقواعد سلوكية موجهة تحديداً، ضد المسيحية، وعلى سبيل المثال، يقول التلمود، بالإضافة الى سلسلة من المزاعم الجنسية البذيئة ضد يسوع المسيح، بأن عقابه فى الجحيم يقضى بإغراقه فى غائط يغلي – والقصد من هذا القول ليس بالضبط، تحبيب المسيحيين الاتقياء بالتلمود. ويستطيع المرء أن يستشهد بإحدى قواعد السلوك التى تشير على اليهود بإحراق أي نسخة من الإنجيل تقع في أيديهم، وإن يفعلوا ذلك علناً إذا أمكن. (وهذه القاعدة ما زالت سارية المفعول حتى يومنا هذا، بل تمارس فعلاً؛ وعلى هذا النحو، أحرقت علناً، في آذار / مارس 1980، مئات النسخ من الإنجيل، في احتفال أقيم في القدس، برعاية ياد لأخيم، وهى منظمة دينية يهودية تقدم لها المعونات المالية وزارة الأديان الإسرائيلية).

وفي أي حال، وابتداء من القرن الثالث عشر، نمت في أوروبا هجمة قوية مركزة في عدد من نقاطها، ضد اليهودية التلمودية. ونحن لا نشير هنا الى الافتراءات الجاهلة مثل التشهير الذي كان يشيعه الكهنة الغارقون في ظلمة الجهل، في المدن الريفية الصغيرة، ولكننا نشير الى المجادلات الجدية التي كانت تعقد في أفضل الجامعات الأوروبية في ذلك الوقت، والتي كانت تجري على قدر كبير من الانصاف، في ظروف القرون الوسطى. (15)

فماذا كان الرد اليهودي – أو بالأحرى الرد الحاخامي؟ الرد الأبسط كان سلاح الرشوة القديم، وسلاح الوسائل الخاصة المستخدمة من وراء الستار. فقد كان يمكن تدبير أي شيء عن طريق الرشوة في كثير من الأوقات، في معظم البلدان الأوروبية. ولم تكن هذه الحكمة صادقة في أي مكان مثلما كانت صادقة في روما الباباوات في عصر النهضة. فالطبعة الأولى لمجموعة الشرائع التلمودية الكاملة، (ميشنه توراة)، لبن ميمون، التي لا تزخر بقواعد سلوك منفّرة للغاية ضد الأغيار كافة فحسب، بل بهجمات صريحة ايضاً، ضد المسيحية والسيد المسيح (الذي يضيف المؤلف بعد اسمه بكل تقوى، عبارة "فليهلك اسم الشرير") – هذه الطبعة نُشرت بالكامل من دون أي حذف، عام 1480، في روما، خلال ولاية البابا سكستوس الرابع، الذي كان بابا نشيطاً جداً على الصعيد السياسى، وكانت لديه حاجة دائمة وملحة للمال. (وقبل هذا التاريخ ببضع سنوات، نُشرت في روما الطبعة الوحيدة الأقدم لمؤلف ابوليوس "الحمار الذهبى"، من دون أن يُحذف منها الهجوم العنيف على المسيحية. وكان الكسندر السادس بورجيا، من هذه الناحية، ليبرالياً جداً أيضاً.

وحتى خلال تلك الفترة، وقبلها أيضاً، كانت هناك دائماً بلدان تشهد لفترة من الوقت، موجة اضطهاد معادية للتلمود. ولكن هجمة ضارية أكثر تنسيقاً، وأوسع انتشاراً رافقت عصر الإصلاح والإصلاح المضاد. وقد حضت هذه الهجمة على مستوى أعلى من الأمانة الفكرية والمعرفة الأفضل باللغة العبرية في وسط العلماء المسيحيين. وابتداء من القرن السادس عشر، أخضع الأدب التلمودي كله، بما فيه التلمود نفسهن للرقابة المسيحية فى عدد من البلدان. واستمرت هذه الرقابة فى روسيا حتى العام 1917. وكان بعض المراقبين، كما في هولندا، أكثر ليناً من غيرهم، بينما كان بعضهم أكثر صرامة؛ وقد حُذفت منه المقاطع المنفرة أو عُدّلت.

وقد تطورت من هذا النزاع الدراسات الحديثة كافة حول اليهودية، خصوصاً تلك التي وضعها يهود، وما زالت هذه الدراسات حتى يومنا هذا، تحمل العلامات الجلية على أصولها؛ الخداع والتبريرات أو الجدالات العدائية لتنفيذ آراء الغير، واللامبالاة، أو حتى العداء، تجاه السعي الى الحقيقة.

وكل ما يُسمى بالدراسات اليهودية عن الديانة اليهودية منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا، هو عبارة عن جدالات ضد عدو خارجى أكثر مما هو مناظرة داخلية.

ومن المهم أن نلحظ بأن هذه كانت فى البداية، ميزة كتابة التاريخ فى المجتمعات المعروفة كافة (باستثناء اليونان القديمة التي تعرّض مؤرخوها الليبراليون القدامى لهجمات السفسطائيين فيما بعد، بسبب وطنيتهم غير الكافية!) وكان هذا صحيحاً عن المؤرخين الكاثوليك والبروتستانت القدامى، الذين خاضوا جدالات ضد بعضهم بعضاً. وعلى نحو مماثل فقد، كانت التواريخ القومية الأوروبية المبكرة مشرّبة بالقومية الفجّة واحتقار الأمم الأخرى المجاورة كافة. ولكن عاجلاً أم آجلاً، يأتي الوقت الذي يجري فيه امرؤ ما، محاولة لفهم الصخم القومى أو الدينى، وفى الوقت نفسه، لانتقاد بعض النواحي المهمة والعميقة في تاريخ الجماعة التي ينتمي اليها هو نفسه. وتتطور هاتان العمليتان عادة، في وقت واحد وفقط عندما تصبح كتابة التاريخ "مناظرة بلا نهاية" – كما قال بيتر غيل – بفصاحة عوضاً من أن تكون استمراراً للحرب بالوسائل التاريخية. فقط عند ذلك، يصبح من الممكن كتابة تاريخ انساني يجتهد لصالح الدقة والانصاف، ومن ثم يتحول هذا التأريخ، ليصبح إحدى أقوى أدوات الإنسانية وتثقيف الذات.

وهذا هو السبب الذي من أجله تعيد أنظمة الحكم الاستبدادية الحديثة كتابة التاريخ أو تعاقب المؤرخين (16). فعندما يحاول مجتمع بأكمله العودة الى الاستبدادية، يُكتب تاريخ استبدادي، ليس بسبب الإكراه من أعلى، بل بسبب الضغط من أسفل، وهو ضغط فاعل أكثر. وهذا ما حصل في التاريخ اليهودي، وهو يشكل أول عقبة ينبغي لنا تجاوزها.

آليات الدفاع

ما هي الآليات المفصلة (غير الرشوة) التي اعتمدتها الطوائف اليهودية، بالتعاون مع قوى خارجية، لدرء الهجمات عن التلمود وغيره من الأدبيات الدينية؟ يمكننا أن نميّز بضعة أساليب، كانت لجميعها تبعات سياسية مهمة، انعكست في السياسات الإسرائيلية الحالية. وعلى الرغم من أن تزويد كل حالة من الحالات بقرين من سياسات [مناحم] بيغن او من سياسات حركة العمل الصهيونية، سيكون أمراً طويلاً مملاً، فإنني على ثقة بأن القراء الملمين بتفاصيل سياسات الشرق الأوسط سيستطيعون ملاحظة أوجه الشبه.

وآلية الدفاع الأولى التى سأبحث فيها هى آلية التحدي من طرف خفى، المقرون بمظهر المطاوعة الخارجي. وكما شرحت أعلاه، كان لتلك الفقرات التلمودية الموجهة ضد المسيحية أو ضد غير اليهود (17)، إما أن تُحذف أو أن تُعدّل – فالضغط كان قوياً جداً. هذا ما جرى فعله: جرى حذف عدد قليل من الفقرات المنفّرة أكثر من غيرها، من الطبعات كافة الصادرة فى أوروبا بعد أواسط القرن السادس عشر. أما عبارات "الأغيار" (goyim) و "غير اليهود" (eino yehudi) و "الغريب" (Nokhri)، في الفقرات الأخرى، الواردة فى المخطوطات والمطبوعات القديمة كافة، كما فى الطبعات كافة المنشورة في البلدان الإسلامية، فقد جرى إبدالها بعبارات مثل "عابد الأوثان" و "الكافر"، وحتى "الكنعاني" أو "السامري"، التي يمكن الاستبراء منها، ولكن التي يمكن للقارئ اليهودي أن يميّزها، ويتعرّف عليها ككنايات ملطفّة للعبارات القديمة.

وكلما تصاعد الهجوم كلما أصبح الدفاع مفصّلاً أكثر، ومؤدياً أحياناً، الى نتائج مأساوية دائمة. وقد أصبحت الرقابة في روسيا القيصرية، في فترات معينة، رقابة أكثر صرامة، فمنعت الكنايات المذكورة أعلاه، أيضاً بعدما أدركتها على حقيقتها. وعليه، استبدلت السلطات الحاخامية مصطلحات "عربي" و "مسلم" (اسماعيلي بالعبرية، ويعني كليهما)، وأحياناً مصطلح "مصري"، وقد حسبت عن حق، بأن سلطات روسيا القيصرية لن تعترض على هذا النوع من الإساءة. وجرى في الوقت نفسه، توزيع قوائم بشكل مخطوطة تتضمن كل ما حُذف من التلمود، وتشرح المصطلحات الجديدة المستخدمة كافة، وتشير الى كل ما حُذف من عبارات. وكان يُنشر في بعض الأحيان، وقبل الصفحة التي تحمل عنوان كل مجلد من مجلدات الأدبيات التلمودية، كلمة تنصّل عام، تعلن بكل جدية، وتُقسم في بعض الأحيان، بأن كل العبارات العدائية في المجلد تستهدف عباد الأصنام القدماء، أو حتى الكنعانيين الذين اندثروا منذ زمن طويل، أكثر مما تستهدف "الشعوب التي نعيش على أرضها". وبعد الفتح البريطاني للهند، لجأ بعض الحاخامات الى مهرب الادعاء بأن أي تعبير مشين بصفة خاصة، وينطوي على الازدراء، كانوا قد أقدموا على استخدامه، هو تعبير مقصود فقط، ضد اليهود، وأحياناً، ضد سكان استراليا الأصليين، كأكباش فداء أيضاً.

وغني عن القول، بأن كل هذا كان كذبة محسوبة منذ البداية حتى النهاية. وما أن شعر الحاخامات بالأمن، في أعقاب إنشاء دولة إسرائيل، حتى أقدموا، ومن دون أي تردد، على إعادة المقاطع والعبارات المنفّرة كافة، في الطبعات الجديدة كلها. وما زالت تُعاد طباعة قسم كبير من الأدبيات التلمودية، بما فيها التلمود نفسه، من الطبعات القديمة بسبب الكلفة الباهظة لكل طبعة جديدة. ولهذا السبب نُشر في إسرائيل كل ما حُذف من التلمود، المذكور أعلاه، في طبعة رخيصة بعنوان (حيسرونوت شاس). وهكذا يستطيع المرء الآن، أن يقرأ بكل حرية، مقاطع من النوع (18) الذي يأمر كل يهودي، أن يتلو كلما مرّ بالقرب من مدافن، تلاوة مباركة، إذا كانت المدافن يهودية، وإطلاق اللعنة على أمهات الموتى (19)، إذا كانت المدافن غير يهودية – ويجري، في الواقع، تلقين تلامذة المدارس اليهود لهذا الأمر التلمودي. ونجد في الطبعات القديمة إما أن اللعنة محذوفة أو أن إحدى الكنايات حلّت محل مصطلح "الأغيار". ولكننا نجد في الطبعة الإسرائيلية الجديدة للحاخام ادين ستينسالز، (وهي طبعة كاملة مع تفسيرات وشروحات للأجزاء الآرامية من الكتاب، حتى لا يساور تلامذة المدارس أي شك فيما ينبغي لهم قوله)، نجد أن مصطلحات جلية مثل "الأغيار" و "الغرباء" قد أعيدت الى النص.

لقد أقدم الحاخامات بفعل الضغط الخارجي، على إزالة بعض المقاطع أو تعديلها، على نحو مضلل، ولكنهم لم يزيلوا في الممارسات الفعلية المُوصى بها في هذه المقاطع أو يعدّلوها. وينبغي أن نتذكر، وان يتذكر اليهود أنفسهم بصفة خاصة، حقيقة أن مجتمعنا الاستبدادي اعتمد ولقرون من الزمن، عادات بربرية وغير إنسانية لتسميم عقول أفراده، وبأنه ما زال يفعل ذلك. (ولا يمكننا انتحال الأعذار لهذه العادات غير الإنسانية، باعتبارها مجرد ردة فعل على معاداة السامية أو اضطهاد اليهود؛ فهي عادات بربرية لا داعي لها، موجهة ضد كل كائن من الكائنات البشرية. لنقُل مثلاً، أن يهودياً من الأتقياء، وصل للمرة الأولى، الى استراليا، وصادف مروره بالقرب من مدفن خاص بالسكان الأصليين، (Aborigines)؛ فعلى هذا اليهودي التقي – وكفعل عبادة "الله – أن يلعن الأموات المدفونين فيه).

وإننا جميعاً نصبح شركاء في هذا الخداع إذا لم نواجه هذه الحقيقة الاجتماعية الواقعية، متواطئين في عملية تسميم أجيال الحاضر وأجيال المستقبل، مع كل ما لهذه العملية من عواقب.

الخداع مستمر

لم يواصل علماء اليهودية المعاصرون هذا الخداع فحسب، بل أجروا فى الواقع، تحسيناً على الأساليب الحاخامية القديمة، أن في سفاهتها أم في كذبها. وإنني هنا سأحذف، التواريخ المختلفة لمعاداة السامية، باعتبارها غير جديرة بالدرس الجدي، وسأكتفي بتقديم ثلاثة أمثلة خاصة، ومثل عام واحد، على التضليلات "العلمية" الأكثر حداثة. ففي عام 1962، نُشر في القدس، باللغتين العبرية والإنكليزية، جزء من كتاب الشرائع لبن ميمون، المشار اليه آنفاً، والمسمي كتاب المعرفة، الذي يتضمن القواعد الأساسية جداً للإيمان اليهودي وفراضه؛ وقد وُضعت الترجمة الإنكليزية فى مقابل النصل العبري (20).

فقد أعيد النص العبري الى نقاوته الأصلية، وتظهر فيه كاملة الوصية القاضية بإبادة الكفرة من اليهود والقائلة: "م نواجب المرء إبادتهم بأيديه". ولكن هذه الوصية تظهر بصورة ملطفة نوعاً ما في الترجمة الإنكليزية، فتقول: "من واجب المرء أن يتخذ إجراءات فعلية لتدميرهم". ولكن النص العبري يستطرد ليحدد أمثلة رئيسية على "الكفرة" الذين تنبغي إبادتهم "مثل يسوع الناصري وتلامذته، وتسادوك وبايتوس (21) وتلامذتهما، وعسى أن يتعفّن اسم الشرير". وما ينطوي على مغزى أكبر، أن أحداً، بحسب علمي، لم يحتج على هذا التضليل الصارخ، على الرغم من توزيع هذ الكتاب على نطاق واسع، في وسط العلماء في البلدان الناطقة بالإنكليزية.

أما المثل الثاني فيأتي من الولايات المتحدة الأميركية، وأيضاً، من الترجمة الإنكليزية لأحد كتب بن ميمون . إن بن ميمون هذا، الى جانب عمله على جمع شرائع التلمود وتصنيفها كان فيلسوفاً أيضاً، ويُعتبر مؤلفه "دليل الحائرين"، وعن حق، أعظم المؤلفات في الفلسفة الدينية اليهودية، المقروءة والمستخدمة على نطاق واسع، حتى في يومنا هذا. وكان بن ميمون، ولسوء الحظ، بالإضافة الى موقفه اتجاه الأغيار عموماً، والمسيحيين خصوصاً، عنصرياً معادياً للسود أيضاً. فقبيل نهاية الدليل، وفي فصل أساسي منه (الكتاب الثالث، الفصل 51)، يبحث بن ميمون كيف تستطيع فئات مختلفة من البشر التوصل الى القيمة الدينية العليا، أي العبادة الحقيقية لله، ليحدد من بين هذه الفئات، تلك الفئة التي لا تستطيع حتى الاقتراب من هذه القيمة، فيقول:

"بعض الأتراك (أي العنصر المغولي) والبدو في الشمال، والسود والبدو في الجنوب، وأولئك الذين يشبهونهم في أقاليمنا. فطبيعة هؤلاء البشر كمثل طبيعة الحيوانات البكماء، وهم بحسب رأيي، ليسوا في مستوى البشر، ومستواهم بين أشياء الوجود، هو دون مستى الإنسان، وأعلى من مستوى القرد، لأن لهم أكثر مما للقرد، صورة الإنسان والشبه له".

فماذا يفعل المرء الآن بمقطع كهذا، في مؤلف هو غاية في الأهمية والضرورة حول الديانة اليهودية؟

هل يواجه الحقيقة وتبعاتها؟ لا سمح الله! هل يعترف (كما فعل العديد من العلماء المسيحيين، على سبيل المثال، في ظروف مشابهة) بأن مرجعاً يهودياً مهماً جداً، كان يحمل وجهات نظر مسعورة، معادية للسود أيضاً، فيقوم من خلال هذا الاعتراف بمحاولة لتثقيف الذات بالإنسانية الحقيقية؟ بئس هذه الفكرة. وأكاد أتخيل العلماء اليهود في الولايات المتحدة الأميركية وهم يتشاورون فيما بينهم، ويتساءلون: "ما العمل؟" – لأن الكتاب كان ينبغي أن يُترجم بسبب تدهور المعرفة باللغة العبرية في وسط اليهود

الأميركيين. ولقد وُجد الحل المبهج للنفس، إما نتيجة التشاور أو الإلهام الفردي، وتضمنته الترجمة الأميركية الشعبية للدليل، التي وضعها أحدهم، ويدعى فريدلاندر، والتي نُشرت، للمرة الأولى، عام 1952، ثم أعيدت طباعتها مراراً عديدة منذ ذلك التاريخ، بما في ذلك بضع طبعات في أغلفة ورقية. ففي هذه الترجمة نُقلت كلمة كوشيم العبرية، وتعني السود، الى الإنكليزية لتصبح كوشايتس، وهي كلمة لا تعني شيئاً لهؤلاء الذين لا يفقهون العبرية، كما أن أي حاخام خدوم لن يعطي تفسيراً شفوياً لها (22). ولم يحدث أن قيلت كلمة واحدة طوال هذه السنوات، للإشارة الى الخداع الأولي، أو الى الحقائق الإجتماعية التي يرتكز عليها استمرار هذا الخداع. وكل هذا، طوال سنوات الإثارة الناجمة عن حملات مارتن لوثر كينغ، والتي كان يدعمها عدد من الحاخامات، هذا إذا لم نذكر الشخصيات اليهودية الأخرى، التي كان بعضها يعرف، بلا شك، الموقف العنصري المعادي من السود الذي يشكل جزءاً من تراثهم اليهودي. (23)

ولا ريب أن وجد المرء نفسه مدفوعاً الى الفرضية القائلة بأن عدداً لا بأس به من الحاخامات المؤيدين لمارتن لوثر كينغ، كانوا إما معادين للسود، وقد دعموه لأسباب تكتيكية تتعلق بـ "المصلحة اليهودية" (رغبتهم بكسب دعم السود لليهود الأميركيين ولسياسات إسرائيل) أو منافقين بارعين الى حد انفصام الشخصية، قادرين على الانتقال السريع جداً من المتعة الدفينة بالعنصرية المسعورة الى الارتباط المُعلن بنضال معاد للعنصرية، والمراوحة بين هذه المتعة وذاك الارتباط.

ويأتي المثل الثالث من عمل ينطوي على درجة أقل بكثير من القصد العلمي الجدّي – ولكنه يتمتع بشعبية أكبر لهذا السبب بالذات. وهذا العمل هو مؤلف "مباهج اليديش" (The joys Yiddish) لليو روستين. فهذا المؤلف غير الجدي – الذي نُشر للمرة الأولى في الولايات المتحدة، عام 1968، وأعيدت طباعته مرات عديدة، بما فيها بضع طبعات صادرة عن دار بنغوين بأغلفة ورقية – هو عبارة عن سرد قاموسي لكلمات باليديش، التي غالباً ما يستخدمها اليهود، أو حتى غير اليهود في البلدان الناطقة بالإنكليزية. ويوجد، بالإضافة الى التعريف المفصّل لكل كلمة مدوّنة، مع نادرة مسلية تُظهر كيفية استخدامها، مصدر اشتقاق الكلمة، يحدد (بدقة، إجمالاً) اللغة التي أتت منها هذه الكلمة الى اليديش، ومعناها فى تلك اللغة. ولكن كلمة شايغيتس – ومعناها الرئيسى "فتى أو شاب من الأغيار" – هي الاستثناء: إذ يقول المؤلف بصورة غامضة، بأنها مشتقة بالأصل من العبرية، ولكن من دون أن يعطي شكلاً للكلمة العبرية الأصلية أو معنى. ولكن فيما يتعلق بكلمة شيكسا – وهي مؤنث شايغيتس – فإن المؤلف يعطيها كلمتها العبرية الأصلية، شيكيتس، (أو شيكس، كما نقل لفظها من العبرية)، ويعرّف معناها بالعبرية فيقول بأنها تعني "وصمة" وهذه كذبة سافرة، كما يعرف كل من يتكلم العبرية. فقاموس ميجدو العصري عبري – انكليزي، الصادر في إسرائيل، يعرّف كلمة شيكيتس تعريفاً صحيحاً كما يلي "حيوان غير نظيف؛ مخلوق مقزز للنفس، ورجس (وبالعامية تُلفظ شايغيش)، وحقير، وفتى معاند، وفتى من الأغيار".

أما مثلي الأخير، الأكثر عمومية، إذا كان ذلك ممكناً، فهو مثل مريع أكثر من غيره، ويتعلق بموقف الحركة الحسيدية تجاه الأغيار. فالحسيدية – التي تشكل استمراراً (وانحطاطاً!) للصوفية اليهودية – ما زالت حركة حية تُرزق، لها أنصارها النشيطون الذين يعدون بمئات الآلاف، والمخلصون إخلاصاً متعصباً "لحاخاماتهم المقدسين"، الذين اكتسب بعضهم نفوذاً سياسياً كبيراً في إسرائيل، في وسط قادة معظم الأحزاب، ونفوذاً أكثر في وسط المراتب العليا في الجيش.

ما هى إذن، وجهات نظر هذه الحركة بالنسبة الى غير اليهود؟ دعونا نأخذ، على سبيل المثال، كتاب "هاتانيا" الشهير، وهو الكتاب الأساسي لحركة حباد، أحد أهم فروع الحسيدية. فالأغيار كافة، بحسب هذا الكتاب، مخلوقات شيطانية كلية، "لا يوجد فيها

ما هو خيّر إطلاقاً". حتى أن الجنين غير اليهودي يختلف نوعياً عن الجنين اليهودي. كما أن وجود غير اليهودي، بحد ذاته، وجود "غير ضروري"، حيث أن كل الخليقة كانت من أجل اليهود وحدهم.

ويوزع هذا الكتاب في طبعات لا تُعد ولا تُحصى، ويزيد في بث أفكاره وإشاعتها "الأبحاث المستفيضة" العديدة لفوهور حركة حباد بالوراثة، الحالي، المسمى الحاخام اللوبافيتشي م. م. شنيئورسون، الذي يقود من مقره في نيويورك، هذه المنظمة القوية، المنتشرة في أنحاء العالم. أما في إسرائيل، فتُنشر هذه الأفكار على نطاق واسع، في وسط عامة الناس، وفي المدارس، وفي الجيش. (وبحسب شهادة عضو الكنيست، شولاميت الوني، تضاعفت دعاية حباد بصفة خاصة، قبيل الغزو الإسرائيلي للبنان، في آذار / مارس 1978، من أجل حضّ الأطباء والممرضين العسكريين، على حجب المساعدة الطبية عن "جرحى الأغيار". وهذه المشورة شبه النازية لم تُشر تحديداً، الى العرب أو الفلسطينيين، بل الى "الأغيار"، الغوييم، بكل بساطة). وكان أحد رؤساء دولة إسرائيل السابقين، زلمان شازار، من أنصار حباد الغيورين، وقد سعى، علناً، عدد من كبار السياسيين الإسرائيليين والأميركيين – وعلى رأسهم مناحم بيغن - ، لكسب ودّ هذه الحركة وتأييدها، على الرغم من أن عامة الناس تكنُّ كرهاً شديداً للحاخام اللوبافيتشي – فهو، في إسرائيل، وبقائه في نيويورك لأسباب ربانية خلاصية مبهمة، فى الوقت الذي يشتهر فيه موقفه المعادي للسود فى هذه المدينة.

وحقيقة أن حباد، على الرغم من هذه المصاعب البراغماتية، تستطيع أن تكون حركة تتمتع بالتأييد العلني لهذا العدد من كبار الشخصيات السياسية، تعود الى حد كبير، للمعالجة المخاتلة والمضللة تماماً، التي اعتمدها جميع العلماء تقريباً، ممن كتبوا عن الحركة الحسيدية وفرعها الحبادي. وهذا ينطبق، بصفة خاصة، على كل الذين كتبوا، أو يكتبون عنها باللغة الإنكليزية. فهم يطمسون الأدلة الساطعة فى النصوص الحسيدية القديمة، بقدر ما يطمسون المضامين السياسية الأحدث عهداً، الناجمة عنها، والتي تحدث حتى في وجه القارئ غير المبالي للصحافة العبرية الإسرائيلية، التي ينشر فيها الحاخام اللوبافيتشي وغيره من قادة الحسيديم، وبصورة دائمة، أقوالاً وتحريضات مسعورة ومتعطشة للدماء، ضد العرب كافة.

والمخادع الرئيسي في هذه الحالة، والمثل الجيد الدال على قوة الخداع، كان مارتن بوبر. فأعماله العديدة في مديح الحركة الحسيدية ككل (بما فيها حباد)، لا تشير ولو تلميحاً، الى المبادئ الحسيدية الحقيقية المتعلقة بغير اليهود. وتصبح جريمة الخداع أكبر في ضوء حقيقة أن مدائح بوبر للحسيدية نُشرت أولاً، بالألمانية خلال فترة تنامي النزعة القومية الألمانية، وصعود النازية الى السلطة. ولكن في الوقت الذي كان فيه بوبر معارضاً للنازية في الظاهر، كان يمجد حركة تحمل وتعلم مبادئ حول الأغيار، لا تختلف عن المبادئ النازية حول اليهود.
صحيح أن المرء أن يرد بالقول إن اليهود الحسيديم كانوا قبل سبعين عاماً أو خمسين، الضحايا، وأن "الكذبة البيضاء" التي تحابي الضحية، كذبة معذورة. ولكن نتائج الخداع لا تحصى. فأعمال بوبر تُرجمت الى اللغة العبرية لتصبح عنصراً قوياً من عناصر التعليم العبري في إسرائيل، وتزيد في قوة زعماء الحسيديم المتعطشين للدماء. فكانت بالتالي، عاملاً مهماً من عوامل تنامي الشوفينية الإسرائيلية وكراهية الأغيار كافة. وإذا فكرنا في العديد من الأرواح البشرية التي قضت متأثرة بجراحها بسبب رفض ممرضي الجيش الإسرائيلي الاعتناء بها، بحضّ من من الدعاية الحسيدية، فإن عبء المسؤولية الثقيل عن دمائهم، يقع على رأس مارتن بوبر.

وينبغي لي أن أذكر هنا، بأن بوبر في تملقه للحركة الحسيدية، قد جاوز كثيراً، غيره من العلماء اليهود، خصوصاً هؤلاء الذين كتبوا باللغة العبرية (أو سابقاً، باليديش)، وحتى

هؤلاء الذين كتبوا بلغات أوروبية ولكن لجمهور يهودي صرف. ولقد كان هناك، في وقت من الأوقات، الكثير من النقد المبرر للحركة الحسيدية في مسائل تتعلق بمصالح يهودية داخلية. فكراهيتهم للمرأة (التي تفوق في تطرفها كثيراً، الكراهية للمرأة الشائعة في وسط الأرثوذوكسية اليهودية)، وانغماسهم في معاقرة الخمرة، وتقديسهم المتعصب لـ "حاخاماتهم المقدسين"، المتوارثين للمنصب، والذين يبتزون أموالهم، والمعتقدات الخرافية العديدة التي تميزهم عن غيرهم – كل هذه الأمور، وغيرها من الصفات السلبية العديدة، كانت موضوع تعقيبات ناقدة. ولكن النصر كان حليف رومانسية بوبر العاطفية المضللة، خصوصاً في الولايات المتحدة وإسرائيل، لأنها كانت متناغمة مع الإعجاب الاستبدادي بكل ما هو "يهودي حقيقي"، ولأن بعض الدوائر اليهودية "اليسارية" التي كان لبوبر تأثير كبير عليها، قد تبنت هذا الموقف.

ولم يكن بوبر وحده فى هذا الموقف وإن كان، برأيى، الأسوأ بما لا يُقاس فى الشرور التي بثّها، والتأثير الذي خلفه. فقد كان عالم الاجتماع والعالم التوراتي، يحزقئال كوفمان، ذو التأثير الشديد، من دعاة الإبادة الجماعية على غرار سفر يوشع؛ وكان الفيلسوف المثالي هوغو شموئيل برغمان، قد دعا منذ 1914 – 1915، الى طرد كل الفلسطينيين الى العراق، وطرد الكثيرين غيرهم. وكان جميع هؤلاء من الحمائم في ظاهرهم، ولكنهم اعتمدوا صيغاً يمكن استخدامها ببراعة بمعنى معاد أقصى العداء للعرب، وكانوا جميعاً ذوي ميول الى تلك الصوفية الدينية التى تشجع على نشر الأضاليل، كما كانوا جميعاً يبدون أناساً لطفاء، غير قادرين على إيذاء ذبابة حتى عندما كانوا يدعون الى الطرد والعنصرية والإبادة – ولهذا السبب وحده كان تأثير أضاليلهم أكبر.

وعلينا أن نناضل ضد تمجيد اللاإنسانية التي لا ينادي بها الحاخامات وحدهم، بل أيضاً هؤلاء الذين يُفترض أن يكونوا أعظم علماء اليهودية، وبالتأكيد أكثرهم تأثيراً. وعلينا أن نردد فى وجه الخلفاء الحديثين للأنبياء المزيفين والكهنة المخادعين – وحتى فى وجه الرأي الذي يكاد يكون إجماعياً في إسرائيل، وفي وسط غالبية اليهود في بلدان مثل الولايات المتحدة – أن نردد تحذير لوكريتيوس من تخلي المرء عن قدرته على الحكم وتكوين الرأي، واستسلامه للكلام الخطابي الذي يطلقه الزعماء الدينيون: "يدفع الدين بالرجال الى ذرى كهذه من الشرّ". فالدين ليس دائماً أفيون الشعوب (كما قال كارل ماركس)، ولكنه غالباً ما يمكن أن يكون كذلك، وهو عندما يُستخدم بهذا المعنى، بالمواربة وبعرض طبيعته على غير حقيقتها، فإن العلماء والمثقفين الذين يؤدون هذه المهمة يتخذون لأنفسهم شخصية مهربي الأفيون.

ولكننا نستطيع أن نستخلص من هذا التحليل، استنتاجاً آخر، أكثر عمومية، عن الوسائل الفاعلة والمفزعة للإكراه على فعل الشر، وعلى الغش والخداع، وإفساد شعوب بكاملها، من دون تلطيخ الأيدي بالعنف، ودفع هذه الشعوب الى ممارسة القمع والقتل. (إذ لم يعد هناك إمكانية لأي شك في أن أفظع أعمال القمع في الضفة الغربية، أعمال مدفوعة بالتعصب الديني اليهودي). ويبدو أن معظم الناس يفترضون بأن أسوأ الأنظمة الاستبدادية تستخدم الإكراه الجسدي، ويرجعون الى التصور الخيالي في مؤلف [جورج] أورويل "1984"، كنموذج يصوّر نظاماً من هذا النوع. ولكن يبدو لي أن وجهة النظر الشائعة هذه، لهي على خطأ كبير؛ وإن الأصدق بالنسبة الى أخطار الطبيعة البشرية هو حدس إسحاق عظيموف في رواياته العلمية حيث القمع الأسوأ هو دائماً القمع الذي يستوعبه المرء وينطوي عليه فيصير عنده جزءاً من نفسه. فالحاخامات – بل أكثر منهم، العلماء الذين نهاجمهم هنا، ومعهم كل العصابة الصامتة بدورها، من أشباه المثقفين الباحثين عما يسهل فهمه، كالكتاب والصحافيين والشخصيات العامة، الذين يكذبون ويخدعون أكثر منهم – كل هؤلاء وعلى عكس علماء ستالين المدجنين، لا يواجهون الموت أو معسكرات الاعتقال فحسب، بل الضغط الاجتماعي أيضاً. فهم يكذبون بدافع وطنيتهم، لأنهم يعتقدون بأن واجبهم يقضي بأن

يكذبوا من أجل ما يتصورونه المصلحة اليهودية. إنهم كَذَبة وطنيون، وإن هذا الشعور الوطني هو نفسه الذي يدفعهم الى الصمت عندما يجدون أنفسهم، وجهاً لوجه، أمام التمييز ضد الفلسطينيين واضطهادهم.

وإننا نواجه أيضاً في الحالة هذه، ولاء فئوياً، ولكنه ولاء آتٍ من خارج الجماعة، يكون حتى أشد أذى في بعض الأحيان. فهناك العديد من غير اليهود، بمن فيهم رجال الدين المسيحيون والمتدينون من غير الكهنوتيين، بالإضافة الى بعض الماركسيين من الجماعات الماركسية كافة، الذين يحملون رأياً غريباً يقول بأن إحدى الطرق "للتكفير" عن اضطهاد اليهود، هي الامتناع عن الكلام ضد الشرور التي يرتكبها يهود، بل المشاركة في إطلاق "الأكاذيب البيضاء" عنهم. وإن تهمة معاداة السامية الفجّة (أو تهمة "كراهية الذات" في حالة اليهود) التي تطلق ضد أي شخص يحتج على التمييز ضد الفلسطينيين، أو يشير الى أي حقيقة حول الديانة اليهودية، أو الماضي اليهودي، تهمة تتعارض مع "الصيغة الموافق عليها"، هذه التهمة يُطلقها أصدقاء اليهود من غير اليهود، بعداء وقوة أكبر مما يفعل اليهود أنفسهم. إن وجود هذه الجماعة ونفوذها الكبير في البلدان الغربية كافة وخصوصاً في الولايات المتحدة (وفي غيرها أيضاً، من البلدان الناطقة بالإنكليزية)، هو الذي أتاح للحاخامات وعلماء اليهودية، نشر أكاذيبهم، وليس فقط من دون معارضة، بل بمساعدة كبيرة أيضاً.

في الواقع، إن ما فعله العديدون ممن تظاهروا بالعداء للستالينية، هو مجرد استبدالهم صنماً بآخر لعبادته، وكانوا يميلون الى تأييد العنصرية والتعصب اليهودي، بحماسة ومخادعة أكبر مما كنا نجده في الماضي في وسط أكثر الستالينيين إخلاصاً. وعلى الرغم من أن ظاهرة التأييد الأعمى والستاليني، لأي شر ما دام شراً يهودياً، ظاهرة تعززت ابتداء من عام 1945، عندما أصبحت الحقيقة عن إبادة اليهود الأوروبيين معروفة، فإنه من الخطأ الافتراض بأن هذه الظاهرة بدأت آنذاك فحسب. وعلى العكس من ذلك، تعود هذه الظاهرة الى تاريخ أبعد من ذلك بكثير، خصوصاً في الدوائر الاشتراكية – الديمقراطية.

وموسى هيس، أحد أصدقاء ماركس الأوائل، الذي كان معروفاً ومحترماً على نطاق واسع كأحد أوائل الاشتراكيين في ألمانيا، كشف عن نفسه فيما بعد، كعنصري يهودي متطرف، وكانت آراؤه حول "العرق اليهودي النقي" التي نُشرت عام 1858، آراء لا تختلف بالمقارنة، عن اللغو حول "العرق الآري النقي". ولكن الاشتراكيين الألمان الذين ناضلوا ضد العنصرية الألمانية التزموا الصمت حول عنصريتهم اليهودية.

وفي عام 1944، أبّان النضال الفعلي ضد هتلر، صادق حزب العمال البريطاني على خطة من أجل طرد الفلسطينيين من فلسطين، كانت مماثلة لخطط هتلر المبكرة (حتى حوالي العام 1941)، بخصوص اليهود.

وقد صودق على هذه الخطة بضغط من الأعضاء اليهود في قيادة الحزب، الذين أظهر العديدون منهم موقفاً ينم عن القربى والود تجاه كل السياسات الإسرائيلية، أقوى مما كان يظهره في أي وقت، مؤيدو ايان سميث من المحافظين. ولكن المحظورات الستالينية على اليسار في بريطانيا، كانت أقوى من المحظورات على اليمين، إذ لا يجري أي نقاش تقريباً، حتى عندما يؤيد حزب العمال حكومة [مناحم] بيغن.

ويسود وضع مماثل في الولايات المتحدة؛ ومرة أخرى، يبدو الليبراليون الفئة الأسوأ من غيرها.

وليس المجال هنا، مجال تحرّي التبعات السياسية كافة لهذا الوضع، ولكن علينا أن نواجه الحقيقة: إننا في نضالنا ضد عنصرية الديانة اليهودية وتعصبها، سنجد بأن ألّد أعدائنا لن يكونوا العنصريين اليهود (والذين يستخدمون العنصرية) فحسب، بل أولئك الناس ايضاً، من غير اليهود، الذين يُعرفون في مجالات أخرى – وزيفاً برأيي – كأناس "تقدميين".

الحواشي

1- أن اليهود بذاتهم وصفوا أنفسهم فى كل مكان، كطائفة دينية، أو، حتى نكون أكثر دقة، كأمة دينية. "إن شعبنا هو شعب فقط بسبب التوراة (الشرائع الدينية)" – إن هذا القول لأحد أرفع المراجع، الحاخام سعاديا هاجاعون، الذي عاش في القرن العاشر، وأصبح مضرب الأمثال.

2- منحهم إياها الإمبراطور جوزف الثاني، في العام 1782.

3- كل هذا محذوف في كتب التاريخ اليهودية العامية، من أجل إشاعة الأسطورة القائلة بأن اليهود حافظوا على ديانتهم بفضل أعجوبة أو قوة خفية غريبة.

4- في كتابها "Origins of Totalitarianism"، على سبيل المثال، الذي خصص جزء كبير منه لليهود.

5- كان الحاخامات، قبل نهاية القرن الثامن عشر، يسمحون لليهود الألمان بكتابة الألمانية بالأحرف العبرية فقط، تحت طائلة الحرم الكنسي والجلد، الخ.

6- عندما أدت صفقة بين الإمبراطورية الرومانية والقادة اليهود (حكم أسرة النسيعيم)، الى إخضاع كل اليهود في الإمبراطورية للسلطة التأديبية والمالية لهؤلاء القادة ومحاكمهم الحاخامية، بعدما أخذوا على عاتقهم المحافظة على النظام في وسط اليهود.

7- أكتب ذلك لكوني غير اشتراكي. ولكنني سوف أجلّ وأحترم الناس الذين أخالفهم في مبادئهم، إذا ما بذلوا جهداً مخلصاً ليكونوا أوفياء لمبادئهم. وعلى العكس من ذلك، ليس هناك ما هو أحقر من الاستخدام غير الصادق للمبادئ الجامعة، صحيحة كانت أم غير صحيحة، من أجل الأهداف الأنانية للفرد، أو ما هو أسوأ، من أجل الأهداف الأنانية للجماعة.

8- أن العديد من جوانب اليهودية الأرثوذوكسية مستقاة في الواقع، من أسبارطة، على ما يبدو، وذلك عبر النفوذ السياسي المفسد لأفلاطون. أنظر، حول هذا الموضوع، التعليقات الممتازة لموسى هداس فى "Hellenistic culture, Fusion and Diffusion", Columbia University Press, New York , 1959.

9- بما في ذلك جغرافية فلسطين وبالطبع، موقعها بالذات. ويبين ذلك توجه الكنس اليهودية كافة في بلدان بولندا وروسيا: فمن المفترض على اليهود أداء الصلاة وهم يواجهون القدس، وكان اليهود الأوروبيين الذين لم تكن لديهم إلا فكرة غامضة عن موقع القدس، يفترضون دائماً بأنها باتجاه الشرق، بينما كان موقع القدس بالنسبة اليهم في الواقع، هو أكثر باتجاه الجنوب.

10- إنني أستخدم من بداية هذا الفصل وحتى نهايته، مصطلح اليهودية الكلاسيكية للإشارة الى اليهودية الحاخامية كما برزت بعد عام 800م تقريباً، ودامت حتى نهاية القرن الثامن عشر، وإنني أتجنّب مصطلح "اليهودية المعيارية" الذي يستخدمه العديد من المؤلفين ليؤدي المعنى نفسه تقريباً، لأن لهذا المصطلح في رأيي، معاني ضمنية غير مبررة.

11- إن أعمال اليهود الهيللينيين مثل فيلو الاسكندرية، تشكل استثناء. لقد كتبت قبل أن تحرز اليهودية مكانة الهيمنة الحصرية. ولقد مُنع نشر هذه الأعمال فيما بعد بالطبع، وفي وسط اليهود، ولم تبق إلا لأن الكهنة المسيحيين وجدوها ملائمة.

12- خلال كامل الفترة بين عام 100م وعام 1500م، كُتب كتابان عن الرحلات وكتاب تاريخ واحد للدراسات التلمودية – وهو كتاب قصير وغير دقيق وممل، كتبه علاوة على ذلك، فيلسوف مُحتقر (ابراهيم بن دافيد، في إسبانيا، في حوالي العام 1170).

13- "ميصور عينايم" لعزاريا دي روسي من فيرارا في إيطاليا، 1574.

14- الحالات المعروفة أكثر من غيرها كانت في إسبانيا؛ على سبيل المثال (وإذا كان لنا أن نستخدم الأسماء المسيحية التي تبنوها لأنفسهم) الاستاذ الفونسو من فالا دوليد، الذي اعتنق المسيحية في عام 1320، وبول من سانتا ماريا، الذي اعتنق المسيحية في عام 1290 وعُيّن أسقفاً لبور غوس في عام 1415. ولكن بالإمكان أن نذكر العديد من الحالات الأخرى، من أنحاء أوروبا الغربية.

15- بالتأكيد، كانت اللهجة، والنتائج أيضاً، أفضل بكثير مما كانت في الجدالات التي اتُهم فيها المسيحيون بالهرطقة – مثلاً، تلك التي أدين فيها بيتر ابيلارد أو الفرنسيسكانيون المتشددون.

16- إن المثالين الستاليني والصيني معروفان معرفة جيدة بما فيه الكفاية. إلا أنه من الجدير أن نذكر بأن اضطهاد المؤرخين الصادقين في ألمانيا بدأ في وقت مبكر جداً. ففي العام 1874 سُجن هـ ايوالد، وهو أستاذ في غوتينجن، بسبب تعبيره عن آراء "غير صحيحة" حول فتوحات فريدريك الثاني، قبل مائة عام. والوضع في إسرائيل مشابه: فأسوأ الهجمات ضدي لم تثرها المصطلحات العنيفة التى استخدمها فى إداناتى للصهيونية ولاضطهاد الفلسطينيين، ولكن آثارها مقال من أولى مقالاتي حول دور اليهود في تجارة الرقيق، وكانت آخر الحالات التي استشهدت بها تعود الى عام 1870. ولقد نُشر هذا المقال قبل حرب 1967؛ ونشره في هذه الأيام، سوف يكون مستحيلاً.

17- كان ينبغي في النهاية، إزالة بعض المقاطع الأخرى أيضاً، مثل تلك التي بدت لا معقولة لاهوتياً (مثلاً، حيث يُقال بأ، الله يصلى لنفسه، أو أنه يقوم جسدياً، ببعض الممارسات التي أوصى الفرد اليهودي بالقيام بها)، أو تلك المقاطع التي تمتدح بحرية زائدة، المغامرات الجنسية للحاخامات القدامى.

18- دراسة "بيراخوت"، ص – 58 ب.

19- "إن أمك سترتبك على نحو موجع؛ إن التي حملت بك ستشعر بالخزي . . ." ارميا النبي، 12:50.

20- صادر عن Boys Town، وقد حرره موسى هيامسون، أحد أشهر علماء اليهودية فى بريطانيا.

21- المؤسسون المفترضون للفرقة الدينية الصدوقية.

22- يسعدني أن أقول بأن كلمة "السود" تظهر في ترجمة جديدة صدرت مؤخراً (عن دار نشر جامعة شيكاغو)، ولكن هذا الكتاب الكبير، الباهظ الثمن، من غير المحتمل الي الآن، أن يصل الى "الأيدي التى ينبغى ألا يصل اليها، وعلى نحو مماثل، كان يُسمح في انكلترا، في أوائل القرن التاسع عشر، بنشر كتب راديكالية (مثل كتاب غودوين) شرط أن تصدر في طبعات باهظة الثمن.

23- يمكننا أن نذكر واقعة إضافية في هذا الصدد. لقد كان ممكناً تماماً، وجديراً بالاحترام على ما يبدو، أن ينشر عالم يهودي بالإسلام، هو برنارد لويس (الذي درّس سابقاً في لندن، ويدّرس الآن في الولايات المتحدة)، مقالاً في Encounter، يشير فيه الى العديد من الفقرات في الأدب الإسلامي، المعادية للسود، برأيه، ولكن حتى (أي فقرة من هذه الفقرات، لا تشبه الفقرة المقتبسة أعلاه. وسوف يكون مستحيلاً تماماً لأي كان اليوم، مثلما كان مستحيلاً خلال السنوات الثلاثين الأخيرة، أن يناقش في أي نشرة أميركية مُعتبرة، هذه الفقرة أعلاه أو غيرها من الفقرات التلمودية العديدة النابية، المعادية للسود. ولكن التهجم على الإسلام وحده، من دون نقد الجهات كافة، يصبح مجرد افتراء.